

روايات عبر



مارغريت بارغيتز

الوعد المكسور



www.elromancia.com

مكتبة مصرية

الوعد المكسور

ساره مكسورة القلب بعد فقدانها والديها، وحيدة تصل الى جزيرة «مل» في اسكتلندا للعمل سكرتيرة عند هيو فريزر. لكنه يطلب منها، اضافة الى مهماتها، الاعتناء باخته الشابة جيل، وهي الواقعة في هوى رسام لا يحبه هيو ولا يوافق على علاقته باخته... مع انه لا يعرفه رافضاً مقابلته في الأساس. شيئاً فشيئاً ترسم على شاشة الحب علامات اخرى، اذ تجد ساره انها مبللة الفكر بين واجبها وقلبها، فهي لا تستطيع القيام بدور الجاسوسة والوقوف في وجه اثنين يحبان بعضهما... ومن جهة اخرى بدأ قلبها يخفق بشدة امام هيو. اخيراً، خلال الحفلة السنوية تكتشف ساره ان هيو صديقة جميلة وثرية ولا يعود بإمكانها احتمال شيء... تهرب، البحر امامها وهيو وراءها، وقلبها مبلبل اكثر من اي وقت مضى!

السودان ٨٠٠م	اليمن ٩ ر	الكويت ٧٥٠ ف	لبنان ٨٠٠ د
U.K. £ 1	تونس ١ د	الامارات ١٠ د	سورية ٨٠٠ د
France F 10	ليبيا ٧٠٠ د	البحرين ١ د	الأردن ٦٠٠ ف
Greece Drs 150	المغرب ٨ د	قطر ١٠ ر	العراق ٥٠٠ ف
Cyprus P 1	مصر ٨٠٠ م	عمان ١ ر	السعودية ٩ ر

١- لقاء غير مريح

© MARGARET PARGETER 1975

© 1983 Harlequin (Cyprus) Ltd.

حقوق التأليف: مارغريت بارغيت

جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة لهارلكوين
(قبرص) المحدودة

بعد أن اجتاز المركب صخرة ليدي مارا على بعد قليل من أسوار قلعة
ديوارت ألقى مراسيه قرب رصيف مرفأ كريغنيور.
وتنهدت سارة بارتياح بعد أن وصلت أخيراً، وراحت عيناها تبحثان في
تشوق متفحصتين الحشد الصغير من الناس فوق الرصيف. لقد ذكر لها
جيمس بأن هيو فريزر سيكون هنا في انتظارها، ولكنها لم تتبين أي شخص
يناسب الوصف الذي اعطاه لها قائلاً بأنه رجل في حوالى الثلاثين من
عمره، طويل واسود الشعر. ودخل سارة الأمل بالأى يكون هيو فريزر
الذي قرر استخدامها بعجلة بدون أن يراها قد نسي فجأة كل ما يتعلق بها.
واستدارت نحو امتعتها لتجمعها، وتقطعية خفيفة تعلو جبهتها الملساء.
ثم سارت بتثاقل فوق المعبر الخشبي الذي يصل المركب بالرصيف.
واسترجعت في ذهنها استمتاعها برحلتها في المركب على الرغم من
اضطراب الأمواج، ألا انها احست بان زمناً طويلاً قد انقضى منذ ان
غادرت لندن من محطة يوستن البارحة. وعندما ودعتها صديقتها جين،
السيدة التي كانت تقيم سارة في منزلها في لندن، على رصيف المحطة قالت
لها بمرح:

«ستكون رحلتك ممتعة بدون شك يا عزيزي».

وذلك بعد ان ساعدتها في العثور على مقصورة فارغة في القطار،
واغرقتها بسيل من المجلات.

وسافرت سارة ليلاً الى غلاسكو في اسكوتلندا، ثم غادرت قطارها الى
القطار المتوجه الى اويان ومن هناك استقلت المركب. وقد تمتعت برحلة

المراسلات

Harlequin (Cyprus) Ltd.

29 Michalakopoulou St.

Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by

Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

جيدة مع انها كانت مرهقة قليلاً. وبينما راحت تتساءل بصبر نافذ عن طول
المدة التي عليها ان تنتظرها، اعترها شعور بأن غاية ما تصبو اليه الآن
الوصول الى نهاية مطافها.

ابتعدت سارة عن المركب بضع خطوات ثم القت بحقائقها كيفما كان
بجانبها، وراحت تحديق بفضول عبر المرفأ الى كريغتيور التي بدت لها بلدة
صغيرة لا تحتوي الا على بعض البيوت المتناثرة وعدة فنادق متراسة على
حافة المياه حول الخليج. وفي الخلفية لاحت لها سلسلة من الجبال الوعرة.
ولاحظت بأن بعض السيارات التي كانت على ظهر المركب قد غادرته
شارعة في رحلتها عبر الطريق الضيق المتجه الى توبرمري، أما فيما عدا
ذلك فلم يكن هنالك من مظاهر الحياة الا القليل: صبي صغير وجهه منير
يكسوه النمش، يحاول اصطياد السمك ومجموعة من طيور النورس تحلق
بأمل قريه.

وراحت سارة ترقب المنظر باهتمام مستغرق لم تقطعه الا هبة ريح
عصفت فجأة باحدى حقائبها الصغيرة وأخذت تلعب بها. وقفزت سارة
فزعة الى الامام، ولكن قبل ان تستطيع الوصول الى حقيبتها سارع شخص
وسبقها اليها مسترجعاً اياها، وعرفته سارة على الفور، وتبينت فيه
الشخص الذي لاحظته على المركب لأنه كان يصفر لحناً معروفاً من اوبرا
ريغوليتو. وكان شاباً نحيلاً ذا لحية، يرتدي بنطلوناً ضيقاً من المخمل
الاسود وبلوזה سوداء. وطاق بذهنها أن ملابسه تليق بصالة قهوة في حي
تشلسي الراقي في لندن لا بجزيرة سكوتلندية. وابتمس الشاب بمرح وهو
يعيد لها حقيبتها.

وردت سارة ابتسامته بسرعة وقالت له بحرارة:

«لقد سارعت في اللحظة المناسبة، ولو انك تأخرت لحظة واحدة
لانتهدت حقيقتي في البحر».

«وأنا لا أعرف السباحة».

قالتا بلهجة مازحة وهو يزيح جانباً بضحكتة كلماتها اللاهثة الشاكرة.

وضاقت حدقتاه وهما تستقران على وجهها المضرج.

«هل تخمين ان اوصلك بسيارتي الى اي مكان؟ او لم تقرري بعد اين
تريدين ان تذهبي؟».

وشعرت سارة بالاضطراب وهي تزيح بصرها جانباً محاولة ان تتغلب
على شعور باهت بعدم الارتياح. وتمتمت:
«قد لا يكون اتجاهاً واحداً».

وتمنت لو انها ارتدت للسفر ثياباً اكثر وقاراً من بنطلونها الجينز القديم،
فلقد بدا واضحاً أن هذا الرجل ظنّها فتاة تهيم هنا وهناك بحثاً عن
الصحبة. وسارعت الى القول غير عابئة بنظراته الجريئة:

«في الحقيقة انني في طريقي الى لوخ غويل من اجل العمل عند هيو
فريزر. وقد اتفقنا على ان انتظره هنا. ولهذا فانا لست بحاجة الى عرضك،
ومع ذلك شكراً».

«هيو فريزر».

ولوهلة بدا لها وكأنه جفل عند ذكر ذلك الاسم. ولكن هذا الانطباع
سرعان ما تلاشى حتى انها شكت في حقيقته. وقال هازاً كتفيه بعدم
مبالاة:

«حسناً من المحتمل ان التقى بك يوماً ما».

ورفع يده بحركة عابرة ثم دار على عقبيه، وقفز بخفة الى مقعد سيارة
قديمة مهملة وساقها مبتعداً، وسارة ترقب المشهد بصمت.

واستدارت وهي تتهد، ثم جلست على صندوق مقلوب لتخزين
السمك، واستعدت للانتظار. وعبت الهواء الذي كان يفوح برائحة
السمك والملح واعشاب البحر بعمق، واحست بحدته المنعشة. انها لم
تقابل هيو فريزر بعد. ولم تكن تعرف اي شيء عن منظره الا بضع كلمات
تفوه بها جيمس. وبدا لها من الصعب التصديق ان تكون جالسة هنا بعيداً
عن بيتها تستعد لابتداء وظيفة جديدة على جزيرة تكاد لا تعرف عنها شيئاً.

ففي السابق لم تكن هذه الجزيرة الا اسماً على الخريطة، ولو لم يقع حادث
الطائرة الذي تسبب في مقتل والديها لكان من المحتمل ألا تبقى الا مجرد اسم.
في الحقيقة ان جين هي التي ساعدتها على العثور على هذه الوظيفة.

وجين مارلي هي صديقة قديمة للأسرة عرفت سارة منذ طفولتها. وبعد
وقوع الحادث ذهبت سارة لتعيش معها، اذ كان من الضروري ان ينتقل
طبيب آخر الى البيت والعيادة حيث كان والدها يعمل، وحيث كانت سارة
تساعده مستقبلة مرضاه. وفي اي حال ما كانت سارة ترغب في الاستمرار

بالعيش في البيت بعد ان رحل والداها.

وكانت جين تعمل سكرتيرة لأحد مؤسسي مكتب معروف للمحاماة في
الوست اند في لندن وهي التي اقترحت أن تحاول سارة الابتعاد عن لندن
لمدة وذلك اثناء مكالمته هاتفية الى سارة من مكتبها.

«اعتقد انك بحاجة الى الابتعاد يا حبيبتي. قالت لسارة برقة. ورغم
انني اكره ان نفترق إلا انني اعتقد انك بحاجة الى التغيير. ولم استطع ان
افعل شيئاً بهذا الشأن في الماضي، ولكن يبدو الآن أن صلواتي قد
استجبت متجسمة في طلب من شخص يدعى هيو فريزر يسكن في إحدى
جزر اسكوتلندا».

ثم تابعت تسرد بقية قصتها على سارة التي اصغت اليها بحيرة.
«انا لا اعرف فريزر شخصياً يا سارة، ولكن جيمس يعرفه، وقد ورث
فريزر بعض الاملاك والاراضي في جزيرة «مل» وهو بحاجة الى سكرتيرة
لمدة شهر تقريباً تساعد على ترتيب اموره، وتكون على استعداد لمصاحبة
وتسليته اخته الصغرى - اخته غير الشقيقة على ما اعتقد. وهو بالطبع
يستطيع ان يستعين باحدى العاملات في مكتبه فهو يمثل بيت فريزر في
شركة فريزر وهاردنغ للاستيراد. وانت لا شك قد سمعت بها. ولكن
يبدو انه يفضل استخدام فتاة لا تعمل في مكتبه، وهذا ما دفعه الى الاتصال
بجيمس هاتفياً».

وقاطعتها سارة قائلة وهي تتمسك بسמاعة الهاتف في محاولة منها
لتستوعب كلمات جين:

«ولكن لماذا اخترتني انا؟».

فاجابت جين بقلق:

«لأنك بحاجة الى التغيير يا عزيزتي، وعندما سألتني جيمس فيها لو كنت
اعرف شخصاً مناسباً فكرت بك في الحال. انا كلتينا نعرف كم كانت هذه
الاسابيع الاخيرة مؤلمة بالنسبة اليك. وعمل كهذا هو افضل في اعتقادي
من اجازة في الوقت الحاضر. فهو سيشغلك ذهنياً وجسدياً ويساعد على
تحويل فكرك عن الحادث. على كل، فكّري في هذا الاقتراح وستناقشه هذه
الامسية. واذا نال رضاك فان جيمس سيقابلك بشأنه غداً صباحاً».

ولكن سارة، مهملة نصيحة جين لم تعر الموضوع تفكيراً عميقاً، فعلى

الرغم من مضي شهر على حادث تحطم طائرة والديها فان ذهنها كان ما يزال
يعاني من حالة من الخدر دفعتها الى القبول بدلاً من التفكير. وبما ان جين
ترى بأن هذا الرجل، فريزر، انسان معقول وأن التغيير سيفيدها فانه لا
مانع لديها من التعاون. وفي اليوم التالي ذهبت سارة مع جين لمقابلة جيمس
كار ووجدته رجلاً لطيفاً يقارب الخمسين. وكانت تعرف بانه يحب جين
وان هذا الحب استمر عدة سنوات. ولكن يا لسوء الحظ كانت جين التي
انتهى زواجها بالطلاق، تاركاً ذكرى مريّة في نفسها، على غير استعداد
لتجرب الزواج ثانية. إلا انها كانت تخرج معه بين الحين والآخر، وقد
عرّفته منذ زمن طويل على والدي سارة اللذين كانا يكتان له مودة كبيرة.
واستقبل جيمس سارة بابتسامة، وأشار اليها بلطف بالجلوس، ثم دقّ
الجرس طالباً بعض القهوة. وبعدها انتقل للحديث عن متطلبات الوظيفة
المقترحة. وبدا قانعاً بمؤهلاتها وبقدرتها على ارضاء موكله جيداً.

«انا اعرف بأن سيدة مسنة بعض الشيء كانت تعمل عند العم هيو.
وهي طباحة ومدبرة منزل ماهرة. ان جيل، في اعتقادي، قد تكون متعبة
الى حد ما، ولكن هذا لا يعني بأنني اشك في قدرتك على تسيير الامور
جيداً».

قال هذا وعيناه تبتسمان لها من فوق نظارته ذات الاطار الذهبي.
وفكرت سارة وهي تتململ بقلق فوق صندوق الخشب الذي كانت
تجلس عليه: ان جيل هي اخت هيو فريزر غير الشقيقة. وهي السبب كما
شرح لها جيمس في عدم رغبة السيد فريزر في استخدام فتاة صغيرة السن،
أو سيدة نموذجية في منتصف العمر. وخطر لسارة أن فريزر نفسه يبدو
شخصاً نموذجياً. واملت وهي تلوي شفيتها الرقيقتين بان يحوز عمرها ٢١
عاماً، على رضى فريزر. وفي كل حال فانه لا يبدو ان اخته اليافعة تشكل
مشكلة كبيرة. ومن المحتمل ان ما ينشده اخوها هو بعض المساعدة من فتاة
عاقلة وخفيفة الحركة تستطيع ان تعاون جيل على ملء وقتها في جزيرة
منعزلة كهذه.

وعبست سارة وهي ترفع ناظرها عن ساعة يدها لتحديق في شمس
الاصيل، ولكن صوت محرك سيارة جعلها تتحول بعينها الى رصيف
البحر. وحادث السيارة التي كانت من نوع لاند روفر عن الطريق

وسارعت الى حيث رسي المركب. ثم توقفت فجأة بضغطة قوية على الفرامل، وقفز منها رجل طويل راح يحلج جموع الناس بنظرات وجيزة وسريعة. وكان حسن الهندام رغم أن ثيابه كانت عبارة عن بنطلون من المخمل المضلع وكنزة بيضاء ذات قبة عالية. وبدت ثيابه مناسبة لجسده القوي المتين العضلات. وأوحى لها وجهه المتدفق حيوية انه رجل يقضي معظم اوقاته في الهواء الطلق يتعرض للريح والعواصف، وانه يميل الى العيش في خطر.

واستقرت نظراته عليها الآن تفحصها بموضوعية محاولة تقييمها. وشملتها عيناه الرامدتان الفاترتان بنظراتهما من تحت حاجبيه الداكنين الشخيرين. ولاحظت سارة صرامة قوس الصدغين والفك وانسياب شعره الداكن، مدركة بأن شدته وصرامته تحول دون نعتة بالرجل الوسيم. وانتهت سارة الى أن خلاصة ما يمكن وصفه به هو انه رجل متين البنيان ومثير للاهتمام. وابتسمت له بآلية لان عينيه استقرتا عليها اخيراً. وضابت حدقتاه. وتغير التعبير الذي كان يكسو وجهه. وارتفع حاجباه الثقيلان قليلاً. ثم اختلج فمه الصارم بابتسامة جعلت الدم يتدفق في خدي سارة. اذ انها كانت ابتسامة متعالية هازئة قليلاً، باعثة على الاضطراب.

وسار حتى وقف بجانبها مهيمناً بقامته المديدة. وسألها بحدّة: «هل انت سارة ديتون، سكرتيري الجديدة؟». وعندما هزت سارة رأسها بالايجاب مرتبكة مضطربة أضاف بكياسة: «اسمي هيو فريزر، وأنا من لوخ غويل». وسارعت سارة للوقوف على قدميها اذ انها شعرت بفقدان التكافؤ وهو يطل عليها من فوق. وقالت وهي تحاول ان تلملم كل ما استطاعته من وقار:

«لقد غادرت القارب منذ لحظات فقط».

«اذن دعينا نذهب».

ومن دون ان يعيرها مزيداً من الاهتمام حمل حقائبها بخفة ووضعها في مؤخرة السيارة. وبحركة عابرة من يده اشار اليها بان تجلس في مقعد السيارة المجاور له.

وفكرت سارة مجفلة: لا فائدة من أن أتوقع منه ان يفتح لي باب السيارة. على كل هورثيسي وأنا مرؤوسته. ولمحت سارة في عينيه بريق استمتاع بالموقف وهو واقف بانتظارها ويضع يديه في جيبيه. وفجأة أدركت انه يستطيع قراءة افكارها مما يعث الغيظ في نفسها. وانتقل تفكيرها الى السيارة ووجدت انها تعرف أن اللاند روفر هي افضل سيارة من نوعها للانتقال في مناطق الهايلاند ولكن الم يكن بالامكان ترتيبها قليلاً؟ وأمعنت النظر بامتعاض في مجموعة الاشياء المبعثرة في ارض السيارة، كل ما ينظر على البال: من المعاول حتى المواشير. أما حقائبها فقد تربعت بكبرياء فوق حزمة من القش. وخلعت سارة متعبة معطف المطر الذي كانت ترتديه وجلست بحذر شديد على حافة المقعد.

«كما ترين؟ انها ليست سيارة وثيرة».

واهتز المقعد عندما استقر في السيارة بجانبها قائلاً:

«ارمي هذه الاوراق القديمة وراءك واحترسي من صفيحة البنزين تلك. هل استمتعت برحلتك؟».

«نعم...».

ورأت سارة ان سؤاله المتأخر ما كان الا سؤالاً املته اللياقة، اذ ان صوته لم يعبر عن اي شعور بالاهتمام.

وحاد بالسيارة باحتراس عن الرصيف سائلاً بسلاسة ومهارة معتادة، غلغلاً وراءه كريغنيور، سالكاً الطريق باتجاه سالن في الشمال.

وثارت الدهشة في نفس سارة ووجدت نفسها تقول قبل ان تستطيع ايقاف كلماتها:

«ولكنك قدمت من ناحية الجنوب».

«هذا صحيح». اجاب بتكاسل وبإيماءة طفيفة من حاجبيه الداكنين.

«لقد ذهبت لأقابل شخصاً لشراء كلب».

واحمر وجه سارة وندمت على كلماتها، فالامر، كما اوحى جوابه لا يخصها.

وقال مبتسماً وهو يرمق وجهها المكتشب بنظرة سريعة لاح فيها وميض من التسلية:

«انني ابحث عن فصيلة خاصة، واجد من الصعب العثور عليها. هذا

الطريق سيقودنا الى مشارف سالن ومن هناك سنحيد الى اليسار ونسلك الطريق باتجاه لوخ غويل. وسالن هي قرية صغيرة تقع على الساحل ولا تبعد إلا عدة اميال من هنا. وقد أسسها رجل كان يتقلد منصب حاكم جنوب ويلز الجديدة، ويحمل اسم لاختان ابن كويري.

واجابت سارة:

«انا ارى...»

ولم تكن متأكدة انها فعلا ترى. وعلقت:

«لا شك ان لاختان ابن كويري كان رجلاً ذا شأن».

«هل سبق لك ان كنت هنا؟»

سألتها بصوت تحالجه الحدة.

«لا».

وشعرت سارة بأن ذهنها قادر فقط على صياغة الاجابات الوحيدة المقاطع.

«لو حاولت الجلوس جيداً في مقعدك لاستطعت الاسترخاء وخف توتر اعصابك».

وخفف من سرعة السيارة بصبر لكي يتيح لبعض الخراف عبور الطريق الجديد. ولاح البحر على بعد عدة ياردات فقط، لا يفصله عن البر سوى شاطئ ضيق تكسوه الحصى وتتكسر عليه الامواج برقة. واستجابت سارة مرة ثانية لتعليماته، واحست، لدهشتها بتحسن. وتناهد اليها كلماته: «إننا نتعلم كيف نأخذ الامور ببساطة في هذه المنطقة من العالم. إلا انني يجب ان اعترف بأن اتقان هذا يستغرق بعض الوقت».

وعاد لمتابعة الطريق بعد ان مرت الخراف، بينما راحت سارة تراقب القطيع يتبعها، وبللت شفيتها قبل ان تتمم برصاة:

«انه لمن الواضح ان السيد لاختان ابن كويري لم يتبع هذه النصيحة».

فحدجها بنظرة طويلة، وقال وفي عينيه بريق:

«انك تخطئين الامور يا آنسة ويتنون فالاسترخاء لا علاقة له البتة بالكسل».

فأدارت سارة رأسها المتألق باتجاهه، وراحت تنفخض وجهه عابسة متحيرة، وقد داخلها الشعور بأنه اذكى من ان تكون ندأ له.

واذا هو رأسه بدوره بعد ان احس بنظراتها المتفحصة الطويلة. «من كنت تتوقعين ان تقابلي؟» وتابع مبتسماً: «رجل جبلي اشعث يرتدي الكلت (تنورة يرتديها الرجال في سكوتلندا) والسيف السكوتلندي ليكمل لك الصورة؟».

تدفق الدم في وجنتي سارة اذ قابلت عينها عينيه الساخرتين.

«انني لم افكر في هذا مطلقاً».

اجابته ذاكرة نصف الحقيقة فقط. وتركت عيناه عينها لترمقا ارجوان وجهها الجميل.

«هل اتعدى الحدود فيما لو سألتك ماذا تفعل فتاة مثلك هنا؟».

ولم تفهم سارة فحوى كلماته بالضبط، اذ لاحت لها في عينيه نظرة متأملة، فقالت موضحة:

«ولكنك ابدت رغبتك في استخدام سكرتيرة».

ولامست عيناه جانب وجهها وكمال خطوطه.

«ما كنت لأظن بأن فتاة لها جمالك ستبدي الرغبة في ان تجد عملاً في جزيرة كهذه، حتى ولو لبضعة اسابيع».

فاستدارت سارة نحوه مستاءة وحذقت فيه بتحد. ماذا يحاول ان يقول؟ «لعلك تظن بأنني اصغر مما يجب».

وشعرت بنضاتها تتسارع في خوف. لا يمكن ان يعني بأنها غير مناسبة ليس بعد ان قطعت هذه المسافة الطويلة:

«لقد اسأت فهم مقصدي».

وتركت نظراته وجهها لتعاود التركيز على الطريق.

«لقد طلبت من جيمس كار بشكل خاص ان يبحث لي عن فتاة شابة. انك تبدين صغيرة بلا شك لأنني اكبر منك».

وتذكرت سارة بان جيمس ذكر لها بان فريزر يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. اذن هو ليس بالرجل المعمر وسارعت تقول:

«انني اؤكد لك بان منظري لن يؤثر بأية طريقة على عملي مطلقاً».

واحست بكلماتها تطفو في الهواء جامدة، متزمتة، مما جعل خديها يشتعلان خجلاً للمرة الثانية.

«نوحى كلماتك بالامتناع».

وتناول علبة السكاثر من جيبه وقدم لها واحدة . ولما هزت رأسها بخمول رافضة ، تناول هو واحدة واشعلها ، ثم القى بعود الكبريت المحترق خارج النافذة .

«ربما كان يجب ان تصر على اختيار فتاة خالية من الجمال عندما اتصلت بالسيد كار .»

قالت وهي ترنو بتعاسة الى سحب الدخان التي خلفتها سيكارتة خارج النافذة .

وأخذ الطريق يضيق ومن دون انذار اندفع هيو فريزر بسيارته نحو طريق جانبي وتوقف .

ونظر اليها مرة اخرى يتمهل عابث من تحت حاجبين تقوسا في حركة طفيفة اثارت الغيظ في نفس سارة الآن ، كما اثارته قبلاً . وقال عجيباً على ملاحظتها الاخيرة :

«أنا شخصياً لا اعترض لدي على استخدام سكرتيرة جميلة . وابتسم مضيقاً : «ولو ان توقفي هنا قد اثار في نفسك بعض التساؤلات فان السبب هو انني اريد ان اناقشك في بعض الامور قبل ان نلتقي بالآخرين» .

وراح يتأمل نهاية سيكارتة المشتعلة بامعان مثير للجنون . وانتظرت سارة متململة عرجة ، وازاحت شعرها الطويل الاشقر الى الوراء بأصابعها النحيلة بعصبية . ان هذا الرجل يثير نفورها وفضولها معاً ، ويدفعها الى الحيلة على الرغم من انها لم يلتقيا الا قبل لحظات فقط . وقد اوجت لها شخصيته باشياء لا تستطيع ان تتكهنها . وهو بلا شك يختلف عن اي رجل سبق لها ان قابلته . وسألته سارة بعناد محاولة ان تنفادي مجابهة الغموض والابهام .

«الا تظن ان سيده اكبر سنأ مني تناسبك اكثر؟» .

واستدار نحوها بصبر نافذ متململاً :

«ولكن السيدات الناضجات لا يتمتعن دائماً بالكفاءة ، ولا يمكنهن التكيف بسهولة ، ويتطلبن غالباً وقتاً طويلاً للاستقرار» .

ظنت سارة انها فهمت مقصده فقالت وهي تبتسم بأدب :

«أظنك تريد ان انتهي من عملي هنا بأسرع وقت ممكن» .

«ليس بالضرورة» .

وتركت عيناه شعرها لتستقرا على وجهها بامعان متكاسل . كأنه يتفحص لوحة .

«في تقديري ، المدة اللازمة لانجاز العمل هي ستة أسابيع ولكنه من المستحيل تحديد الوقت بالضبط» .

«هذا يعني اننا قد ننتهي قبل المدة المقررة» .

«أو بعدها ، وهذا يتوقف على مدة بقائي هنا . فقد اضطر لقضاء بعض الوقت في لندن» .

واستوعبت سارة فحوى كلماته بصمت . طبعاً لقد نسيت ، أن عمله الاساسي مقره لندن ، وليس هنا . وجلست برهة لتحديق في لوحة جهاز القياس امامها ، غير شاعرة بعينيه المتفحصتين ، واخيراً تمتعت قائلة :

«لا شك انه من غير المريح ان يعيش المرء بعيداً عن المدينة» .

ثم أضافت وقد أدركت أن ملاحظتها انما هي حقيقة معروفة للطرفين . «لقد اخبرتني جين بأنك تعمل في تجارة الاستيراد» .

«جين؟» .

وعرت نظراته الخدّة اذ رمقتها عيناه باحتراس .

تمتت سارة لو انها لم تنطق بكلمة . وسارعت الى الايضاح :

«جين مارلي ، صديقتي ، هي سكرتيرة السيد كار . والحقيقة انها هي التي اخبرتني عن هذه الوظيفة» .

«آه فهمت» .

وتراخت اعصابه المشدودة بوضوح ومن دون سبب مفهوم لسارة . وأضاف :

«حسناً ، من اجل ايضاح الامور بحسن بي ان اذكر بأن الاستيراد كان مهنة والدي وليس مهنتي ، وذلك حتى لحظة اختفائه من يخته قبل ستة شهور ، اما انا فقد عشت في الخارج معظم الوقت ، انا مهندس» .

«أنا آسفة» .

أجابت سارة ببطء ، وبدا لها غريباً ألا يكون جيمس قد ذكر لها شيئاً عن هذا الحادث . ولو انها كانت على علم مسبق بذلك لاستطاعت ان تتجنب

هذا الموقف المحرج . وضافت عينا هيو فريزر ثم قال بلطف ، ولكن بنبرة حازمة :

«ان هذا كله لا علاقة له بك. اما بالنسبة الى تحديد المدة التي سيستغرقها عمالك هنا فيمكننا التناقص بشأنها في المستقبل. ان صدمة موت والدي كانت اكثر مما استطاع ان يتحملة عمي الذي كان يكبره سناً والذي لم يكن يتمتع بصحة جيدة. وكان عمي متعلقاً بلوخ غويل. ولكن لم ادرك الى اي حد اهمل الامور حتى اتيت الى هنا من اجل ان ارتب وانسق اعماله».

وتعمل لحظة، ولكن سارة تجنبت ان تعبر مرة اخرى عن تعاطفها. فمن الواضح انه انما يفضي اليها بهذه التفاصيل الآن بسبب علاقتها بالعمل الذي جاءت من اجله، ثم قالت وهي تتذكر بعض مرضى والدها المسنين:

«ان كبار السن يميلون بدون استثناء الى اهمال اعمالهم».

وتجاهل فريزر كلماتها، وتابع قائلاً باستعلاء وتهيم:

«وعندما لاحظت الفوضى التي سادت مكتب عمي لجأت في الحال الى طلب المعونة من جيمس كار. الا انه لم يكن بالامكان الخوض في التفاصيل قبل وصولك. فبالإضافة الى واجباتك الوظيفية، هنالك امر آخر اود أن اتحدث اليك بشأنه قبل ان نصل الى لوخ غويل...».

فردت سارة وهي تحاول ان تخفي اضطرابها الفجائي وراء ابتسامة مشرقة:

«السكرتيرة الجيدة هي سكرتيرة متعددة المهارات».

فاطفاً فريزر سيكارته المحترقة قائلاً:

«ان السيدة سكوت مديرة منزلي، تحمل الرأي نفسه على الاكثر. وهي بلا شك ستعتبر احدى مهماتها مراقبة تصرفاتك، ولهذا فانا احذرك».

ابتسمت سارة رغم التعب الذي كانت تشعر به فهي عادة تملك القدرة على مصاحبة من هم اكبر منها سناً.

«هل هي كبيرة السن؟».

قالت وهي تقابل عينيه الداكنتين بثقة متجددة.

«في الستينيات على ما اعتقد».

وتجعد جبينه وهو يقول مسلماً:

«ان بيدي هي مؤسسة بكاملها او تكاد. واطن انه يمكننا اعتبارها فرداً

من العائلة. ونحب ان نتصرف كما يحلو لها».

«لقد تحدث السيد كار عن اختك غير الشقيقة. قالت سارة بجرأة مزوجة بالحذر، كما ذكر بأنك بحاجة الى من يساعدك على رعايتها».

ولاحظت سارة تجهها في وجهه وهي تتكلم، وكان التعبير المرتسم على ملامحه مزيجاً من نفاد الصبر والتسليم.

«ان جيل تقارب العشرين. ووالدتها وهي اميركية المولد، تقوم حالياً بزيارة طويلة لاميركا، ولهذا فانه من الناحية النظرية تقع مهمة رعاية جيل على عاتقي».

«الا يوجد شخص آخر؟».

«تعين افضل؟».

ولمعت عيناه بسخريّة اذ توردت وجنتاها وقال:

«لا، مع الاسف، لا يوجد من يستطيع التأثير عليها».

ورمته سارة بنظرة سريعة اذ ضاقت شفتاه الصارمتان، وقالت:

«يبدو انك تعاني من مشكلة».

«قد اكون...» وهي مشكلة كنت بغنى عنها. يبدو ان جيل قد سمحت لنفسها بالاختلاط مع بعض رفاق السوء بعد سفر والدتها. ويا لسوء الحظ، قال متهدداً، كنت انا مشغولاً جداً، بينما لم يكن لدى جيل ما يشغلها ما فيه الكفاية».

«قد لا يكون يتعدى الامر مجرد مرحلة تمر بها».

اشارت بلباقة، محولة نظراتها عن وجهه العابس الى يديه المشدودتين على المقود.

«وفري عليّ الملاحظات النافهة، قال ووجهه ينطق سخريّة، انت لا تعرفين اختي. فهي لا تمر بمراحل. كما انها تظن انها تعرف كل الاجوبة، ولكنها لا تعرف معنى المسؤولية. وجيل في الوقت الحاضر تعتقد بانها تحب فناناً فقيراً، وتصمم على الزواج منه».

وقفزت عينها سارة الى وجهه ثانية. فمن الواضح، كما بدا من نبرات صوته، انه لا يوافق. هل السبب هو كون الرجل فناناً او فقيراً؟ وتمتمت بردد:

«لو انه رجل مناسب فقد لا يبقى فقيراً دائماً في غير هذه الظروف».

«قد تستطيعين محاولة الاصغاء الي، يا آنسة ديتون».

قال مستديراً في مقعده وعيناه الساحرتان تلتقيان بعينيها الواسعتين المكشوفتين.

«وما لا شك فيه انك قطعت مسافة طويلة. ومن المحتمل أن التعب قد بلغ بك حداً يحول بينك وبين التفكير الصائب. ولهذا فأنا ارجو ان تسمح لي لنفسي بالاهتداء بأرائي. وبالإضافة الي اني اعرف المزيد عن هذا الشاب. وما سمعته عنه يجعله بحاجة الى الكثير مما يزكيه. هذا لو توخيت في تقييمه جانب الاعتدال».

«ولكن هل قابلته؟».

سألته سارة بسرعة. وعلى الرغم من انه كان على بعد عدة سنتيمترات منها، فقد احست بان المسافة الذهنية بينها شاسعة. وفجأة ومن دون سبب تسارعت نبضاتها. وداخلها شعور بالتعاطف مع جيل المتمردة.

«ان ما يقلقني هو طبع جيل المندفع. وهي الآن تتماثل للشقاء اثر عملية جراحية، وستأتي الى لوخ غويل لتقضي فترة نقاهتها. ان احداً هنا لا يعرف شيئاً عن صديقها، ولهذا لا داعي لأن يذكره احد إلا اذا اشارت اليه هي نفسها. من المحتمل أن تنساه اذا ما قضت فترة بدون ان تراه. وهنا اجد مساعدتك ضرورية انا لا اظن بانه سيتبعها الى لوخ غويل، ولكنني بحاجة الى من يراقبها ويخبرني فيما لو لاحظ شيئاً مريباً. لا اعتقد بانك ستجدين هذه المهمة شاقة جداً».

وعبست سارة، وهي غير مقتنعة بعد. واعتراها شعور مزعج بأنها لم تسمع القصة بكاملها بعد. وبأنه لم يذكر لها كل شيء. وفي قرارة نفسها احست بأن الموضوع يغلفه شيء من الميلودراما، كقصة من العصور الوسطى. لا شك أن اسلوباً أكثر تفهماً وتحاوياً هو أفضل من هذا الموقف الابوي الثقيل. لعل سفر والده جيل قد اتاح لشعوره بالمسؤولية ان يفقد توازنه قليلاً. وسألت:

«أليس من المحتمل ان تكون محضاً في حقها بعض الشيء؟ فإن الحب بين اختك وبين هذا الرجل قد يكون حقيقياً».

«لقد سبق أن ذكرت لك أن هذا مستحيل».

اجاب باقتضاب وبدا التصلب جلياً في موقفه.

«الن تفعل ما اطلبه منك؟».

وتساءلت سارة: الم يقع هو في الحب شخصياً؟ ثم داخلها الشك. ان رجلاً مثله لا بد ان يخضع عواطفه لنظام صارم. ولا شك ان قلبه لا يمكن ان يسمح له بان يلين إلا اذا امره عقله.

ولما لم تجب اعاد سؤاله بصبر نافذ وبصوت صارم.

«انا ارفض التجسس».

اجابت سارة بكل الحدة التي جرأت عليها. وتقابلت نظراتهما.

«انا لا اطلب منك ان تتجسسي. لا تكوني بلهاء».

وراحت انامله تمر خلال شعره الكثيف الداكن بغيط. وكأن الموقف كله قد اثار في نفسه التبرم:

«لوانك وجدت شيئاً فأنا اتوقع منك ان تخبرني. ولكن دون ان تبالي في ابراز الحوادث الصغيرة بحيث تخرج عن سياقها».

«هل هذا امر؟».

«يمكنك اعتباره امراً».

«واذا لم اوافق؟».

واعترها الخوف من الداخل، على الرغم من الغضب المشتعل في عينيها.

«لا اريد ان اجعل من الموضوع مشكلة. ولكن المرؤ وسين عادة يكونون على استعداد لاطاعة الاوامر».

«ضمن حدود».

ارتجفت الكلمات على شفيتها ثائرة.

وجاء جوابه بسرعة بعثت الرعدة في نفسها:

«كان يجب ان اراك بنفسي في لندن».

ادركت سارة بحدسها ان احداً لم يمرؤ من قبل على تحديه.

وسمعت صوتاً... صوتها يجيب:

«حسناً لقد فزت. بما انني هنا فليس لي مجال كبير للاختيار. سأفعل ما يوصي».

كان استسلامها سريعاً، ألا انه كان خالياً من اللياقة والكياسة. اذ انها كانت ما تزال تعاني من الثورة.

«حسناً».

وابتسم ابتسامة رجل تعود على تحقيق ما يريد دائماً.
وبدا وكأنه على استعداد للتصرف بأريحية، متناسياً سلوكها الذي لا
تفسير له.

«اظنك ستجدين أن الأمر لن يتعدى محاولة إيقاف جيل عن الإسراع
إلى لندن كلما شعرت بالملل. والان يحسن بنا أن نتابع طريقنا». وادار
محرك السيارة راجعاً بها إلى الوراء بقوة. ثم غير الموضوع قائلاً:
«استنتج انه لا مانع لديك من العمل في خدمتي».

قالها بلطف وقد علا صوته على صوت المحرك.
اشتعلت عينا سارة الزرقاوان غيضاً بينما كان يدير السيارة. إذ احست
بلذاعة كلماته واسلوبه معاً. ولكنها قررت ان تتجاهل انتقامه الذكي
اللبق. لا شك انه يحس بأنه لم يكن عادلاً تماماً. ولكن كيف تستطيع ان
تناقشه في النواحي الدقيقة لموقف يبدو ظاهرياً بسيطاً نسبياً. فلو ان جيل
وصديقها على علاقة حب فانه ليس من المحتمل الا يحاولا اللقاء. وإذا ما
تم هذا اللقاء فليس من المعقول ان يعتبرها مسؤولة.
«متى تصل شقيقتك؟».

سألت سارة بثبات وهي تتمسك بحافة مقعدها من اجل ان تستعيد
توازنها.

فابتسم ابتسامة ساخرة رداً على موقفها العدائي للموس.
«بعد اسبوع او اكثر كما اتوقع. إذ انها ستبقى في لندن حتى تسمح لها
حالتها الصحية بالسفر. وهذا سيتيح لنا الوقت الكافي لكي نشرع في
العمل».

«طبعاً».

وضغطت سارة على نفسها حتى استطاعت ان تعود بذهنها للتركيز على
المنظر امامها ثانية. وأحست بدوار خفيف وهي تجر عينيها بعيداً عنه وعن
سيطرة رجولته الطاغية المبهمة وعينيهِ اللامعتين كبرق عواصف الصيف،
ثم اضافت بلهجة دفاعية:

«أنا معتادة على العمل الشاق وعلى الساعات الطويلة».

«من المستحسن ان تكوني هكذا».

واستعرضتها عيناه بحدة، مسجلتين تألق جلدها الناعم.

«لن يكون العمل هنا عطلة، او ما شابه ذلك. إذ انه علينا ان ننجز ما
يعادل خمس سنوات من العمل المتراكم. من الواضح ان تقدم عمي في
العمر قد حال بينه وبين ان يرعى اعماله كما يجب».

«ألسنت مجحفاً في حقه قليلاً؟ ألم يكن هناك من يساعده؟».

«يبدو لي يا سارة، انك تحبين الاسئلة. ان عمي لم يكن بالشخص
المغرم بالمكاتب واعمالها، وكان يفضل قضاء وقته في العراء».

ندمت سارة على حمرة الخجل التي صبغت وجنتيها والتي لم تستطع ان
تسيطر عليها لحظة ان صدمها سماع صوت اسمها على شفثيه. وراحت
تحدث في اناملها النحيلة محاولة ان تعطي نفسها مهلة صغيرة تستجمع
خلالها شتات فكرها. فقد لاحظت في طبع فريزر نزعة من القسوة لم تعرف
كيف تتصرف حيالها. وهو بلا شك من النوع الذي اعتاد على المشاركة في
المشاريع الكبرى في الخارج، والذي ينتقي موظفيه بعد طول تدقيق،
متطلباً منهم شدة المراس وتنوع الكفاءات. وإذا ما اصر فان امره فلا بد
ان تنفذ على اكمل وجه. وداخلها الشك في ان تستطيع هي النهوض الى
مثل هذا المستوى.

راقب فريزر وجهها الساكن دون ان يستدير، ثم قال بهزة لامبالاة من
كتفيه القويتين:

«ما هي النتائج التي توصلت اليها داخل هذا الرأس الجميل، يا آنسة
ويتون؟».

واندلع الغضب في نفسها كاللهب، ان هذا الرجل شيطان ساخر يلعب
دوره بسهولة وبراعة، وشعرت سارة بكل اعصابها تنوتر. ولكنها حاولت
ان تتكلم بثبات.

«لقد كنت آمل ان نستطيع العمل معاً بمودة، يا سيد فريزر».

ولعت عيناه باستمتاع.

«انا واثق من هذا يا آنسة ديتون، وإذا ما استطعت تلبية طلباتي، فاني
لن ألجأ الى الشكوى».

«لا تخف، فسأفعل».

لم تذكر سارة انها في السابق قد شعرت بوجود رجل على هذه الصورة،

فكل شيء حوله؛ انحناء رأسه المتفطرس، وقوة كتفيه العريضتين، وذقنه كلها توحى بشدة برجلته. انه من النوع الذي لا بد أن يثير عداء النساء. ولكنها لاستغرابها ودهشتها، وجدت عينها تعودان اليه مراراً والسيارة تندفع عبر طريق الجزيرة المنعزل.

بعد سالن، مال الطريق باتجاه الشاطئ الغربي. ووصلا لورخ غويل قرب نهاية العصر. ولم تنس سارة بعد ذلك ابداً تلك المرة الاولى التي شاهدت فيها القلعة الرابضة على حافة البحر بحجارتها الضخمة التي بدت وكأنها استمرار للمناظر الطبيعية حولها. وترعت القلعة التي بنيت من الغرانيت والحجر الرملي فوق الصخور العالية لعبة للريح، والشمس الغارية تصبغ بالذهب ابراجها وسطوحها.

ونظر الى وجهها المجفل:

«هل يخيفك هذا المكان، يا آنسة؟ لعله كان من الواجب ان احذرك مسبقاً».

فأشاحت سارة بوجهها عنه فلم يعد يبدو له منه الا استدارة الخد الكاملة.

«انني لا افزع بسرعة».

اجابت متمتعة بهدوء.

«هل تقولين الحقيقة؟»

قال وفي صوته نبرة خفيفة من الوعيد. بينما راحت عيناه تقيسانها ببرود وقد لاح فيهما واضحاً بارق من الغيظ المصطنع.

«هل تجدين انه من الضروري دائماً ان نهجمي كالكنفذ. أظن انك شائكة مثله».

«هذا يمليه مبدأ الدفاع عن النفس، يا سيد فريزر. ولكنني اكره مقارنتك هذه».

«الدفاع عن النفس، او ذكرى علاقة حب انتهت نهاية مريرة، يا آنسة ديتون؟ ان العلامات معروفة ويمكن التعرف عليها ببساطة بما في ذلك آلية الدفاع عن النفس».

اجابت سارة بعنف وبصوت منخفض:

«انت مخطيء تماماً».

فرد عليها بجفاء متناه:

«ان اليوم الذي اجد فيه نفسي على خطأ تام لم يولد بعد».

واحست بكلماته اللاذعة تلدغها فهبت قائلة:

«هذا لا علاقة له مطلقاً بما عينته مسبقاً».

«قد لا يكون. لا شك ان الشخص الذي خلف على وجهك مسحة

الحزن الغامضة هذه قد نجح تماماً في اداء مهمته».

قفز قلب سارة بألم. انها لا تستطيع التحدث عن والديها دون ان تخاطر

بقدرتها على ضبط نفسها، ليس بعد. ثم انها لم تكن تريد ان يجر

الحقيقة، من الافضل ان تدعه يصدق ظنونه اذ انها لا تريد عطفاً منه، ولا

تنشد الآ النسيان.

«اقترح بان نعلن هدنة بيننا، يا آنسة ديتون. قال ناظرأ اليها، وشبح

ابتسامة في عينيه، فأنت تملكين لساناً سليطاً اذا ما استشرت».

وعبر بسيارته تحت قوس حجري ضخيم بمرونة خلقتها العادة، باتجاه

الساحة المبلطة وبدا هادئاً بينما احست هي باعصابها مشدودة كالوتر.

تنفست سارة الصعداء. لعلها تستطيع الآن ان تتجنب فريزر حتى

يتسنى لها جمع افكارها المبعثرة. وتذكرت ما قاله لها اثناء حديثها عن

شعوره بالندم لأنه لم يقابلها ويخبرها بنفسه. انها هي ايضاً نذرت واعدة

نفسها، لن تقبل في المستقبل مطلقاً اية وظيفة قبل ان تقابل شخصياً رئيسها

الموعود، هذا على الرغم من ان القليل من الرؤساء يمكن ان يكونوا على

شاكلة هيو فريزر. وقفز عرق صغير في اسفل عنقها لاحظته عينا فريزر قبل

ان يوقف السيارة قائلاً:

«اذا كنت في حالة تسمح لك، ولمس ترددتها وعصبيتها، فلعلك تحيين

ان تقابلي بيدي. من المحتمل ان تلقى لديك قبولاً اكبر مما لقيته انا».

«بالطبع».

وابتسمت محاولة ان تعكس تماسكاً لم تشعر به، محاولة، دون نجاح، ان

تجاهبه مسخريته اللاذعة بسخرية مائلة. ولاحظت حاجبه الايمن بحركته

المعقدة يرتفع، فاشتعلت وجتها خجلاً اذ شعرت بوطاة انتصاره

النهائي، وهما يجتازان الساحة المبلطة متجهين الى الداخل.

٢ - قلعة الأشباح

تبعث سارة هيو فريزر بخطوات سريعة الى مدخل القلعة وقد صممت في نفسها الا تتيح له فرصة ازعاجها اكثر مما فعل. وسارت وراءه عبر ممر ارضي طويل ذي سقف معقود، وخلال باب قادها الى قاعة كبيرة مربعة مبلطة كسيت ارضها بالسجاجيد، وزينت جدرانها بعدد من اللوحات الجدارية المنسوجة التي كانت تعلو مجموعة من الصناديق الخشبية المحفورة. وترى على احد هذه الصناديق باقة من زهور التوليب الصفراء الطويلة التي راحت تتألق في النور الخافت المتسرب من النوافذ الضيقة. وفي احدى نهايتي البهو رأت سارة درجاً لولياً صاعداً احتضنته سماكة الجدران. وكانت تغطيه سجادة حمراء ثخينة.

«اهلاً بك في لوخ غويل».

تمتم هيو فريزر بكياسة من ورائها. واستدارت لتتأمل اليه دون ان تتكلم فقال مبتسماً وقد لاحظ الدهشة المرتسمة على وجهها:

«ستعنادين على القلعة بسرعة. انها تبدو كبيرة، ولكنك عندما تتعلمين كيف تمجدين طريقك خلالها ستسعين ضخامة حجمها. وستجدين بأننا هنا في الحقيقة نتمتع بقسط كبير من الراحة».

«طبعاً».

اجابت بسرعة بينما اخذ هو ذراعها وقادها بحزم عبر القاعة المبلطة الى الدرج الحجري الصاعد الى الطابق الاول، والذي انتهى بهما الى قاعة اخرى. وشعرت سارة بتحسّن في الحال. اذ ان النوافذ الطويلة الثلاث التي اطلت من كواتها المقوسة العميقة في الجدران كانت تتيح لكمية كافية

من النور بالنفوذ خلالها مما غنى الشعور بالكآبة الذي خلفته القاعة الأرضية في نفس سارة. وتناهت اليها رائحة قطع الخشب العطرة التي كانت تحترق في مدفأة كبيرة واسعة زينت اعمدتها الجانبية بالنقوش المحفورة. واحاطت بالقاعة مجموعة من الابواب المصنوعة من خشب السنديان المحفور والتي تقود بدون شك الى الغرف الداخلية. وفي نهاية القاعة شاهدت سارة درجاً ملتوياً مماثلاً للدرج الذي صعدته منذ قليل.

«إننا نعيش في هذا الطابق والطابق الذي يعلوه».

وأرغى قبضته على ذراعها المشدودة رافعاً حاجبيه بحركته المعهودة. ولكن قبل ان تمجد سارة فرصة للاجابة فتح احد الابواب الذي كان واضحاً انه يقود الى المطبخ، وهرعت منه امرأة صغيرة الحجم مرتبة الثياب. «آه، ها هي بيدي!» قال بلهجة سجلت فيها سارة شعوراً بالخلوص. واستدارت لتواجه بيدي التي بدت صغيرة الحجم بالتأكيد. ولكن هالة من الوقار والرصانة النابعة منها جعلتها تبدو اطول مما هي عليه. وبدت كمن تعودت على اعطاء الأوامر وتوقع الاطاعة. الا ان وجهها كان يشع بطيبة واضحة، مما جعل سارة تميل اليها في الحال. ومدت سارة يدها الى بيدي التي استجابت بحركة ماثلة بينما قام هيو بمهمة التعريف.

«اتمنى ان تعجبك القلعة، يا آنسة».

قالت بأدب وعيناها تستقران على وجه سارة المحمر.

«سأدق الجرس لأطلب من كاتي ان ترشدك الى غرفتك. فأنا اتوقع ان تكوني متعبة بعد رحلتك».

وامتدت يدها الى الجرس دون ان تنتظر جواب سارة.

«انا لست على عجل».

اجابت سارة بهدوء وقد اعترها شعور غريب بأن تحاول اثبات وجودها. فقد احست دون تفسير منطقي بأن كلا من هيو وبيدي قد سعيا الى فرض ارادتهما عليها.

وقابلتها عينا هيو اللامعتان.

«يمكنك ان تتحدثي الى بيدي فيما بعد. وتطلبي منها ان تريك المكان».

اما الآن فأظن انه من الحكمة ان تفعلي ما اقترحته عليك، فأنت بلا شك

قد جابهت يوماً طويلاً.

وأحست سارة بأنه اختار ان يسيء فهم مشاعرها عن قصد.

«ان السيد هيو على حق».

قالت بيدي هازة رأسها الفضي الرمادي بالموافقة، مبتسمة برضى.
«ستشعرين بالتحسن غداً بعد قضاء ليلة مريحة، وستجدين الكثير مما يشغلك».

«سأحاول ان امد يد المساعدة بالتأكيد. وحادثت سارة بنظراتها عن هيو بسرعة مخاطبة بيدي: هل هنالك ما يمكن ان افعله الآن...؟».

وتلاشت كلماتها تحت وطأة التردد، ولم تحاول ان تنظر الى هيو اذ تخيلت التعبير الساخر المرتسم على وجهه. وهب في نفسها شعور مزعج بالثورة بينما راحت يدها تمسح جبينها بتعب. لا شك ان بيدي تنفذ كلماته بحذافيرها. ولكنه لا يجب ان يتوقع منها ان تفعل الشيء نفسه.

واومات بيدي برأسها بالموافقة ثانية، غير شاعرة بالتيارات الخفية السارية في الجو حولها. وقالت بلطف:

«ستحضر كاتي في الحال، يا آنسة ويتون، احياناً يخيل لي انها قد اضاعت طريقها».

احست سارة بأنه من العبث ان تتابع الحديث، فابتسمت وراحت تنتظر قدوم كاتي بصمت. وعادت الى التحديق فيها حولها باهتمام متجدد، بينما اخذت بيدي تناقش فريزر بشأن رجل جاء لزيارته بينما كان غائباً.

لم يسبق لسارة ان عاشت في مثل هذا المكان العتيق من قبل. وتساءلت بشيء من التخوف فيما لو انها ستألفه وتحميه. لا شك ان عمر هذه القلعة هو المئات من السنين، من المحتمل انها بنيت في القرن السابع عشر، ولا بد ان الاشباح تسكن ممراتها الدامسة. ويدها لها ان شخصاً ما في وقت ما قد قام بتجديد القلعة من الداخل بحيث استطاع ان يجمع في اسلوب بنائها القديم والحديث. ففي هذا البهو الواسع الذي يعبر عن ذوق رفيع يستطيع المرء ان يجد كل مظاهر الراحة. وفكرت وهي تصعد الى غرفتها، بعد ان جاءت كاتي لتقودها اليها، بأن كل شيء داخل القلعة قد صمم بحيث يتيح لاصحابها فرصة العيش المتكامل.

وجدت سارة ان غرفة النوم التي خصصت لها كانت داخل احد ابراج

القلعة المستديرة. ولم يكن فرشها حديثاً ولكنه كان جذاباً، غير عادي. وغاصت قدمها في السجادة الوردية السمكية والتي كان يماثلها لوناً غطاء السرير المزركش وغطاء الكنبه المجاورة للسرير. وعلى طاولة صغيرة قرب الكنبه رأت مجموعة من الكتب والمجلات، بينما راحت مدفأة كهربائية تشع دفئاً مريحاً حولها. وذكرتها الغرفة، ورغم الاختلاف، بغرفة الضيوف في منزل والديها.

اشارت كاتي الى الطاولة الصغيرة، وكانت مثل بيدي قد تفحصت سارة ورمقتها بنظرات الاستحسان.

«قد تحبين ان تجلسي هنا في بعض الاحيان. قالت وهي تبسم لسارة بمرح، ولهذا فقد تركت لك بعض المجلات».

وشكرتها سارة بسرعة معبرة عن امتنانها وهي تتبلع غصة من الحنين الفجائي. وخننت بأن كاتي هي الخادمة. واحست بميل اليها وهي ترمق وجهها المستدير المرح وعينيها اللذيتين اللامعتين وابتسامتها الودية المبتهجة. واختفت كاتي لبضع دقائق، ولكنها سرعان ما عادت تحمل صينية عليها ابريق من الشاي الحار وبعض شرائح الخبز والزبدة الساخنة. «هذه الصينية من بيدي. وتابعت لاهثة: وقد اخبرني بأن اذكر لك بأن موعد العشاء هو الساعة».

بعد ان استحمت سارة واستراحت قليلاً ارتدت ثوباً ناعماً وهبطت الدرج الى الأسفل.

ثم تناولت عشاءها في غرفة طعام صغيرة قرب قاعة الاستقبال. ولما وجدت نفسها وحدها في هذه الغرفة الفاخرة، اذ انها لم تستطع ان ترى هيو في اي مكان حولها، تمننت، متأخرة، لو انها طلبت تناول العشاء على صينية في غرفتها.

بعد مضي بعض الوقت جاءت بيدي لتؤكد من ان كاتي قد جلبت كل شيء تحتاج اليه سارة، وتلكأت حتى انتهت الضيفة من تناول قهوتها في قاعة الجلوس.

«ان السيد هيو قد ذهب لتناول العشاء مع بعض الاصدقاء».

قالت لسارة التي لم تشأ ان تسأل كاتي عن سبب تغيبه.

«انه يقضي في العادة وقتاً كبيراً خارج المنزل. لا يوجد حالياً من يوفر له

الصحة الكافية، ولكن الظروف ستتغير طبعاً عندما تصل الأنسة جيل.
أمل الا يكون خروجه قد ازعجك يا آنسة.
«لا».

لم تشعر سارة بأي ازعاج بل احست بارتياح لم تستطع له تفسيراً عندما وجدت نفسها بمفردها. ثم انه ليس لها ان تعترض على الكيفية التي يقضي فيها رئيسها اوقاته. ولكن يبدو ان بيدي لا تدرك هذا، فهي على الأغلب لم تضطر الى التعامل مع سكرتيرة من قبل.

«اتوقع ان اعود على العيش هنا في وقت قصير. ثم اظن انك عشت هنا مدة طويلة».

«يبدو ان بعضنا لن يستمر في العيش هنا في المستقبل بعد ان آلت ملكية القلعة الى السيد هيو».

ردت بيدي بحدة. وبدا وكأن الكلمات قد افلنت منها لا ارادياً بعد محاولة كتمان طويلة.

«وطبعاً، سارعت بيدي لاتمام الحديث، نحن نقدر بأنه قد يجبر على بيع لوخ غويل، او يضطر الى استخدام من هم اصغر سناً. بعض مستخدميه يتقدمون في العمر، وواحد او اثنان منهم - مثلي - يعانون من الروماتيزم».

وتنهدت وهي تضغط بيديها على وركيها النحيلين، دون ان تنتبه، وكأنها تريد ان تعطي كلماتها مزيداً من التأكيد.

وضعت سارة قهوتها جانباً، وحدقت في وجه بيدي. لقد املت ان تستطيع الابتعاد بالحديث عن هيو فريزر، ولكنها وجدت نفسها تعود الى الموضوع كالكرة. من المؤكد انه لن يحاول ان يحرم هؤلاء المستخدمين المسنين من بيوتهم، حتى ولو كان عمه هو المسؤول عن عدم تأمين مستقبلهم قبل وفاته. وراحت سارة تنظر الى عظام بيدي الهشة وقد ضاعت الكلمات على شفيتها.

واخيراً قالت، باذلة محاولة متخبطة لبعث الاطمئنان في نفس بيدي:
«لا شك ان السيد فريزر يضطر الى السفر مراراً. ولهذا أقلن يكون من الافضل انت تبقي انت هنا لتعني بالبيت اثناء غيابه؟».

«قد يتزوج تاركاً لزوجته مثل هذه المهمة، اجابت بيدي رافضة اية مواصلة. ان النساء يجدنه شديد الجاذبية. وهناك آنسة معينة تميل اليه جداً».

هضمت سارة هذه المعلومات بصمت دون ان تستطيع تفسيراً للرجفة البسيطة التي اصابتها.

«قد تستطيع الأنسة جيل ان تساعد».

ولكن بيدي بدت وكأنها ندمت على ملاحظتها المندفعة، اذ انها التفتت بسرعة وغادرت القاعة حاملة معها فنجان القهوة الفارغ وهي تتمتم، «انا لا ارجب في ازعاج الأنسة جيل. انا واثقة ان السيد هيو سيجد حلاً لكل مصاعبنا فيما لو اتيح له الوقت الكافي».

قالت هذا واختفت عبر الباب الأخضر الذي يقود الى المطبخ، هاتفة لسارة بصوت مرتفع بأنها تستطيع ان تدق الجرس طالبة كاتي فيما لو احتاجت الى اي شيء. لقد نسيت بيدي، كما بدا واضحاً، انها وعدت بأن تربها القلعة. وفكرت وهي تنظر الى الباب المتأرجع بأن هذا يعني ان عليها الانتظار حتى الغد لكي تتعرف على المكان.

دهشت سارة عندما وجدت انها نامت نوماً عميقاً تلك الليلة في القلعة. وعندما استيقظت لم تستطع ان تفهم اين كانت للوهلة الأولى. ثم صدمتها المعرفة مع عودة وعيها. انها في قلعة لوخ غويل بجدرانها السمكية المتجهمه، ولكن سريرها كان مريحاً. غمرتها اشعة الشمس المنسربة من النافذة نصف المفتوحة فرمت اغطينها بعيداً وقفزت جارية الى النافذة لتنظر من خلالها. كان المنظر رائعاً من برجها المستدير. وبدا البحر بلا نهاية من الزرقة المتألقة. وعندما نظرت الى الأسفل رأت مجموعة من الخلدجان والرؤوس الصغيرة بمحاذاة الشاطئ الذي احست به بناديبها. وغسلت وجهها بالماء البارد بسرعة وارعدت ثيابها على عجلة مختارة بنظولها الجينز القديم وقميصاً مناسباً ضيقاً. وكان هيو فريزر قد ارسل لها رسالة مع كاتي في الأمسية الفائتة ليخبرها بأنه سيكون في انتظارها في غرفة المكتبة بعد الافطار. ولما كان الوقت لا يزال مبكراً، حوالى الساعة فقط كما اكدت لها ساعتها، فقد قررت سارة ان تذهب للاستكشاف.

عندما وصلت سارة الى الردهة، ارتدت صندلها الخفيف وقفزت هابطة الدرج الملتوي. لم تجد اي مخلوق في طريقها، وكان الصمت نحيباً على القلعة الضخمة مما جعلها تحس بأنه لو وقع دبوس على الأرض لسمعته. وحادت عن مدخل القلعة المهيب، متجهة نحو مؤخرة القاعة. ولم تجد

صعوبة في العثور على الممر الطويل الذي سارت عبره البارحة مع هيو فريزر والذي قادها في النهاية الى ساحة القلعة.

في الساحة ايضاً كان الصمت غيماً مما جعلها تشعر وهي تشق طريقها الى قلب صباح ربيعي مثالي بأن العالم كله ملكها. ودارت حول القلعة باتجاه حافة المنحدر ونظرت الى الصخور الشاهقة والشاطئ تحتها. كانت حركة الجزر قد عرت جزءاً كبيراً من الشاطئ، تاركة بركاً صغيرة عميقة خضراء بين عروق الصخور السوداء. ولكن الرمال لم تكن بالكثافة التي قدرتها عندما نظرت الى الشاطئ من النافذة. وقررت وهي تخلق عبر المياه الساطعة الى منحدرات جبل بن مور الهابطة بلطف نحو الأرض المنبسطة على طول الشاطئ المقابل بأن هذا المكان هو المكان المعروف بلوخ ناكيل. ولم يخطر ببالها وهي تطل على الشاطئ من فوق بأن المنحدر الذي وقفت فوقه قد يكون شديد الميل. وظنت انه لا بد ان يكون هنالك طريق ينتهي بها الى هذا الشاطئ المغري الذي يمتد تحتها.

وقعت سارة في اسار المنظر الجميل المحيط بها. ووجدت نفسها تستمر سائرة حتى وصلت الى فوهة شق ضيق ينحدر بين الصخور بدا لها وكأنه بقايا مسلك قديم يقود الى الشاطئ، رغم ان الاعشاب قد كادت تكسوه بالخضرة مما يدل على انه لم يستعمل لسنوات عديدة.

ومن دون تفكير شقت سارة طريقها بتصميم خلال الاعشاب النامية، مزيجاً الأغصان البرية الميتة، محاولة ان تثبت قدميها على الأرض الزلقة التي بللتها الأمطار. وفجأة، ربما لشعورها بأن الوقت كان يمر، احسّت بأنه من الضروري ان تصل الى الشاطئ. واشتبك شعرها ببعض الأشواك التي انتزعت الشريطة التي ربطت بها شعرها مما جعله يتناثر فوق وجهها حاجباً عنها الطريق. وانزلت قدمها على الدرب فتزلزلت مسافة عدة امتار، لكنها عندما نهضت وجدت نفسها، لاستياثها البالغ، واقفة على افرز صخري لا منفذ له. ففوقها امتد الدرب عمودياً الى الأعلى، بينما انحدرت الصخور ملساء تحتها، هابطة عدة امتار نحو الأسفل.

وبحركة مرتجفة من يدها ازاحت سارة شعرها المتروك عن وجهها وقد عراها الاضطراب. ان خطتها لم تقدها الى النتيجة التي نشدت. فهي لن تستطيع الصعود سالكة الدرب نفسه الذي قادها الى هنا، كما انه ليس

بالامكان ان تستطيع الوصول الى الشاطئ فوق الصخور الملساء المنحدرة دون ان تكسر قدماً او رجلاً. وفي غيبتها رأت نفسها تعود الى بيتها في لندن في سيارة اسعاف مما جعلها تبتلع ريقها بتشنج والرجفة تسري في اوصالها. ثم انه لو تناهت الى هيو فريزر قصة ما اقدمت عليه هذا الصباح لما قبل منها علناً. كان من المحتم ان يعتري سارة الفزع. فلقد كان الجرف الصخري الذي وجدت نفسها فوقه ضيقاً وغير مريح. ولم تجد فيه ملجأ يحميها من الرياح الباردة الهابة من البحر. ونفذ البرد خلال قميصها الرقيق الى جلدها العاري فجثت خلف الصخور منطوية على نفسها محاولة ان تحتفظ بدفء جسدها. ورات بعض الطيور البحرية التي تشبه البط قرب حافة المياه تحتها وبعض طيور «الغيلموت» تغوص بينها. ولكنها لم تجد أثراً لأي انسان. وجربت ان تنادي ولكن لم يسمع نداءها احد. وادركت سارة بأنه حتى لو وجد شخص في مكان قريب فإنه من المستحيل ان يسمعها فوق زئير الأمواج.

تنفست سارة ثلاث مرات بعمق متذكرة نصيحة والديها لمعالجة الخوف. وحاولت ان تغير من جلستها غير المريحة. لا بد ان يأتي احد. همست سارة لنفسها بندم. انه من المضحك ان تشعر بمثل هذا الفزع. ولكن كل ما استطاعت ان تراه في ذهنها كان وجه هيو فريزر الساخر. ماذا سيقول لو انه سمع بمغامرتها هذه وراحت تتخيل تعليقاته اللاذعة.

ولكنها يا للفزع، لم تضطر الى الانتظار طويلاً، اذ تناهى اليها وقع حوافر حصان فوق الرمال قبل ان تلمح هيو فريزر نفسه قادماً باتجاهها. وقفزت الى قدميها بجنون مما جعلها تكاد تفقد توازنها، وصرخت محاولة ان تجذب انتباهه.

الجم هيو فريزر حصانه الكستنائي بحدة مديراً رأسه. ثم رآها تلوح من فوق الصخور فوقه. ورماتها بنظرة طويلة ثاقبة سرعان ما تلاشت قبل ان يشد اعنة الحصان ويعدو به الى البقعة تحتها.

«ماذا تفعلين هناك بحق الشيطان؟ صرخ قائلاً بجفاف، لقد ظننت بأنني استأجرت سكرتيرة لا بهلوانة».

وبدا في عينيه الاشمئزاز واضحاً.
«أسفة! صاحت سارة عجبية بغضب، انني لم افعل اكثر من اتباع

الدرب».

«الم تري لافتة، او تخمفي مدى ارتفاع هذه الصخور؟ ان احداً لم يستعمل هذا الدرب منذ عدة سنين. والأعمى يستطيع ان يلاحظ هذا».

«لم ادرك...».

وبذلت سارة جهداً واضحاً لكي تلجم سيلاً من الكلمات المندفعة. وهذبت الفاظها حتى بدت وكأنها مجرد التماس للمساعدة، على كره. وراحت عينها ترمقانه بغضب مكثوم بينما علا صوتها تطلب المساعدة بأدب. «لو استطعت ان تستديري وتتلقي بالحافة متدلية بجسدك، فسيكون بوسعي ان اطالك».

ولم تفت سارة لهجته الجافة، ولكنها وجدت انه من العبث المجادلة. وقررت ان محاولة التخلص من هذه الورطة بأسرع وقت ممكن هي الطريقة الوحيدة للتقليل والتخفيف من ملاساتها. فاخذت نفساً عميقاً ثم فعلت ما طلبه منها منغمضة العينين. وشعرت بدقات قلبها تتسارع عندما راحت قدماها تتأرجحان في الفضاء. ولكن في اللحظة التي بدأت فيها اناملها تنزلق من على حافة الصخرة شعرت بقبضتيه الفولاذيتين تمسكان بها وتحيطان بها على ظهر الحصان امامه.

«ارجوك، دعني اهبط الى الأرض يا سيد فريزر».

واحست بانفاسها تحتق في حنجرتها بينما راحت اناملها المرتجفة تحاول ان تنفذ بلا وعي خلال خصلات شعرها المتشابكة.

ولكن فريزر لم يكيح حصانه الا بعد مرور عدة دقائق. وبدلاً من ان يطلق سراحها، شدد قبضته عليها وهو يشير في البعد الى بقعة بدا فيها مستوى البحر ومستوى الصخور اكثر تقارباً واسهل على التسلق.

«لو انك تابعت المسير، قال بصوت جاف لكان بوسعك ان تهبطي الى الشاطئ بسهولة. وما كنت انتهيت الى ما انتهيت اليه».

ادارت سارة رأسها بحيث لم يعد ظاهراً من وجهها الا جانب الذي راح يختلج بالتوسل.

«كيف كان من الممكن ان اتكهن؟ لقد وصلت البارجة فقط».

واحست بتفاهة ملاحظتها حتى قبل ان يسارع فريزر للاجابة بحدة:

«كان هذا ادعى لأن تطلي النصيحة».

كانت كلمات فريزر منطقية، ولكنها في حالتها الراحنة ما كانت قادرة على التفكير السليم وشعرت بقربه الشديد منها، حتى انها احست بضربات قلبه عكس كنفها، وحاولت ان تبعد عنه قليلاً، ولكنه لم يبد كمن يريد التخلص منها بسرعة. واستأنف فريزر محاضرتة، رافضاً ان يتيح لها فرصة الفكاك منه بسهولة.

«يجب ان تحاولي التذكر في المستقبل بأن بعض نواحي هذا الشاطئ قد تكون كثيرة المخاطر. فالصخور تعلو جداً في بعض الأماكن، وبعضها مقلقل غير ثابت. عندما جئت الى هذا المكان من الشاطئ للمرة الأولى، وانا ما ازال صبيّاً، كان الدرب الذي عثرت انت عليه ينحدر حتى مستوى الشاطئ. ولكن جدار الصخر الذي يعلوه سقط معظمه فوقه في السنوات التالية مما يجعل من تدفعهم الحماقة الى استعمال الدرب يجدون انفسهم وقد وقعوا في فخ لا مخرج منه».

«اذن، انا لست الأولى؟».

«ولست الأخيرة، على ما اعتقد. الناس لا يكفون عن اثارة دهشتي. وانهقد حاجباه وهو يتابع: ان ساحل الجزيرة يجب الا يقارن بشواطئ المصايف الانكليزية».

انتفضت سارة غضباً. هل قرر ان يسلك سلوكاً مهيناً. لا شك انه من الذين يؤمنون بالتعبير عن آرائهم. طبعاً انه على حق في ان يشعر بالغضب، فهي قد تصرف في منتهى الحماقة وتسببت في تضيق وقته الثمين. ولكن بما انه لم يحاول ان يسألها، عن مشاعرها انه لن يستطيع ان يتهمها بتبذير عطفه. واعتراها شعور حاد بالشفقة على النفس وهي ترتكز بنظراتها على عرف الفرس البني الأحمر، وعيناها الزرقاوان تفيضان بالثورة.

«أمل الا يكون التعرض للبرد قد سبب لك بعض المعاناة».

وتصلب جسمها اذ شعرت بعينيه تتفحصان بتعمد، مظهرها الأشعث، ولما تأكد له انها كانت نسيباً، في حالة جيدة سارع الى متابعة كلامه دون ان يتيح لها الفرصة للاعتراض:

«هل تدركين أن عليك ان تبدأي العمل في اقل من ساعتين؟».

«لن أستطيع اذا لم تسمح لي بالتزول».

اجابت مدافعة عن نفسها بصوت مختنق. ولكنه، كالسابق، لم يعرها انتباهاً، بل اخذ يبحث حصانه الضخم على تسلق المتحدر المابط الى الشاطئ.

عندما وصلا الى قمة الصخور، وجدت سارة ان القلعة كانت ابعد مما توقعت. واحست بنفاد صبره وهو يشير الى القلعة قائلاً بجفاء:

«تستطيعين ان تمجدي طريقك الآن. وعندما يحلو لك الهبوط الى الشاطئ، في المستقبل حاولي ان تنتهي الى حركة البحر. فقد يفاجئك المد قاطعاً عليك طريق الرجعة. ومن المحتمل الا تمجديني بقربك لكي تطلبي مني انقاذك ثانية».

وفجأة هبت الريح عابثة بشعرها الذي تطاير فوق وجهه فمد يده ليزجحه مما جعل أصابعه تلامس مؤخرة عنقها العاري.

«لن يكون هذا ضرورياً بالتأكيد. لعله من الأفضل الا اغادر منطقة القلعة مطلقاً».

ولاول مرة في حياتها وجدت نفسها تندفع الى الكلام دون هدى. وانذرها بصيص من الحكمة في اعماقها بانها قد تجاوزت حدود الأدب مع شخص هو رئيسها.

ولكن هيو فريزر اختار ان يتجاهل انفجارها. ولم يفعل اكثر من ان يمزحها بذراعه وهو يشد لجام الحصان مما جعلها غير قادرة على التأكد فيما اذا كانت هذه الوحزة متممة ام لا.

«ما هي نوعية الناس الذين عملت في خدمتهم سابقاً؟».

سأل بصوت مصقول وهو يساعدها على النزول:

«والداي».

اجابت سارة باقتضاب، مستعيدة توازنها، ومادة قامتها باحتراس. ان ذكرى والديها ما تزال تثير الألم في نفسها. ولو ان جيمس لم يشرح لفريزر حادث الطائرة لما كان هناك ما يدعو للظن بأنه فعل، فإنها شخصياً لا تنوي ان تذكر له شيئاً. واكفهرت عيناها اذ تناهت اليها ملاحظته الجافة.

«يا ترى، هل تصرفا بحكمة عندما افلتنا زمامك؟».

حدقت سارة في عينيه مجابهة نظراته الساخرة، ووشت لها جلسته الواثقة بسيطرته النامة على الحصان الكستنائي الضخم. هل يتوقع ان يستطيع

السيطرة على النساء بالطريقة نفسها. ورفضت ان تحجب على سؤاله الأخير.

وحولت نظراتها عنه وهي تنتهد بصمت. ثم قالت لا شعورياً بصوت يفعمه التوسل:

«وانني لا املك الا ان اسالك ان تمنحني فرصة اخرى. ليس من العدل ان تطلب مني المغادرة بسبب هذه الحادثة فقط».

«ليست بداية عظيمة كما يجب ان تعترفي. سنرى كيف تسير الأمور. ان فرص العثور على شخص آخر في هذا الوقت المتأخر صعبة. وبالإضافة، انا اريد الاعتماد عليك في رعاية اختي».

وفجأة عرت الحلة نظراته وتابع:

«اما الآن فأنا اشير عليك بأن تسرعي لتناول بعض الفطور. والا فلنك لن تصلحي لأي شيء هذا الصباح».

وارتفعت كنفه تحت قميصه السميك بحركة أمرة بالانصراف. فجرت بدون ان تلوي على شيء، ولم تتوقف حتى وصلت الى غرفتها.

في غرفة الطعام حيث وضع طعام الفطور على المائدة لم تتناول سارة سوى فنجان من القهوة وقطعة خبز. ثم سألت كاتي عن الطريق الى قاعة المكتبة.

«سيرى في هذا الممر يا انسة. المكتبة هي الغرفة الاخيرة على يمينك».

وظهرت الحيبة على وجه كاتي عندما رفضت سارة ان تأكل المزيد. «ان الانسة جيل عندما تأتي الى هنا من عاداتها ان تتناول فطوراً كبيراً».

وهي تقول بأن الهواء هنا يفتح شهيتها».

أسرعت سارة عبر الممر وطرقت باب المكتبة باحتراس. وكما خشيت، وجدته في انتظارها. ولم تفتها نظراته الفاحصة وهي تعبر الحجرة. هل كان يتوقع ان يراها بالبنطلون الجينز؟ وسرها ان شعرها كان مرتباً وانها لم تستعمل الا قدراً طفيفاً من الماكياج.

طرق فريزر لب الموضوع من دون مقدمات، ومن دون ان يذكر مقابلتها على الشاطئ. وقال وهو يشير الى مكتب صغير قرب النافذة:

«لقد طلبت وضعه هناك خصيصاً من اجلك. لا يوجد مكان كاف هنا».

ونظر الى المكتب الكبير الذي كان يجلس وراءه نظرة مفعمة بالعبوس.

وتبعت سارة اتجاهه نظراته بدهشة: أكوام من المراسلات متناثرة هنا وهناك، وحتى الادراج بدت مكتظة. حسناً لقد انذرنا!
وعبرت الحجرة الى مكتبها وهو ينتظرها بسلبية. ثم جلست.
ولقد اشترت هذه من لندن قبل عدة ايام.
قال وهو يراقبها تزيج غطاء الآلة الكاتبة الجديدة.
«ان عمي، كما هو واضح، ما كان يجذب استعمال هذه الأشياء. ولكنني لا اعتقد اننا نستطيع التدبير من دون واحدة».
والتقط بعض الأوراق بينما ابتسمت سارة بأدب وراحت تتفحص الآلة باهتمام.
«في البداية اريد ان املي عليك بعض الرسائل التي يمكنك ان تطبعها عندما اخرج لتناول الغداء».
تناولت سارة دفترها متاهة ولكن لتجد أنه قد عاد فوضع الأوراق على المكتب وراح يفكر:
«لعله مما يسهل الأمور ان تفهمي، يا انسة ويتون، انني لا املك وقتاً كبيراً للعمل هنا. ومن المحتمل ان اتركك وحدك مراراً لكي تصرفي الأمور بمفردك - كما اتوقع ان يكون جيمس كار قد اخبرك».
«لقد ذكر لي بأنك انسان مشغول».
«هذا تبسيط للحقيقة».
وأخرج قداحته وأشعل سيكارة دافعاً كرسيه الى الوراء. وعب نفساً عميقاً وهو يحدق فيها من خلال الدخان.
«قد تمر بك اوقات في المستقبل تحسن خلالها بوطاة العمل الشديد، ولكن عندما اذهب الى لندن يمكنك ان تنسي كل هذا وتلعي مع جيل. اكتشفا الجزيرة معاً. جيل تعرفها جيداً وسيسعدنا ان تترك معالمها».
«اتوقع ان نجد ما نفعله».
«في الوقت الحاضر ستكون ساعات عملك غير منتظمة. احياناً، اضطر للعمل في المساء بعد تناول العشاء. أمل الا يزعجك هذا».
احست سارة بأنها لا تستسيغ اسلوبه في اصدار الأوامر مغلفة بصيغة سؤال ليس بوسعها الاعتراض عليه. لكن اذا ما توخى المرء العدالة، تعترف سارة أنه لا بد ان يكون مشغولاً جداً بكل مشاريعه ومهامه

المختلفة. لعل الوقت مناسب الآن لان شيئاً في صالح بيدي وكاتي. ولكن كيف تستطيع ان تسأله عن مستقبلها في اول يوم تعمل فيه هنا؟ قد يفسر تدخلها بالوقاحة المطلقة، هذا اذا لم يجد تفسيراً أسوأ. وعلى الرغم من شكوكها وجدت نفسها تسأل لا ارادياً:
«هل تنوي الاشراف على مزرعة لوخ غويل بنفسك؟»
«قد افعل في النهاية».
والتصمت عيناه قليلاً وكأنه قد خمن بعض ما كانت تفكر فيه.
«الا انني ما كنت اتوقع ان اضطر الى تغيير مهنتي في هذه الفترة من عمري. فأنا مهتدم كقوء».
لا شك في هذا! وشعرت باعصابها تتوتر. انه من النوع الذي لا يمكن ان يرضيه الا منتهى الكفاءة في نفسه وفي الآخرين.
ورن جرس الهاتف ممزقاً الصمت الذي ساد للحظة، وشعرت بنظراته لا تحيد عنها وهو يتناول سماعة الهاتف.
اثناء المكالمات شردت نظرات سارة تاركة وجهه المتبرم لتحط على رفوف المكتب المحيطة بالحجرة، ثم لتستقر على قطعة الخشب الكبيرة التي راحت تحترق في المدفأة الحجرية الضخمة. ولاحظت سارة ان ارض القاعة المصنوعة من الخشب السنديان كانت مكسوة بسجادة جميلة باهتة الألوان. واحاطت بالمدفأة من جانبيها كبتان جلديتان. وتحملت سارة الراحة والدفع اللذين لا بد ان يشعر بهما المرء في هذه الغرفة في فصل الشتاء والسنائر الثقيلة مسدلة لتخفف صقيع الرياح الاطلسية العنيفة.
لا شك ان لوخ غويل تنطوي على كثير من الاغراءات التي من شأنها ان تجذب اي رجل. ما هو القرار الذي سيتخذه هيو بشأن هذا المكان يا ترى؟ وعادت سارة بنظراتها الى وجهه الأسمر وقد ادهشها اهتمامها الذي ما كان كله نابعاً من قلقها على بيدي وكاتي. واحست بفضولها يكاد يطفو الى السطح فويخت نفسها بصرامة متذكراً بأنها يجب الا تسمح لافكارها بالطواف حوله، وخصوصاً ان المعرفة بينها لم تتعد فترة وجيزة.
«كان المتحدث هو الرجل الذي تعيشت معه البارحة».
قال واضعاً سماعة الهاتف بغتة قبل ان يعود الى أوراق. ثم رفع نظراته عنها وقال عاقد الحاجبين بصوت حاد:

«يريد ان يراني بعد الغداء اليوم من اجل البحث في امر طاريء. ولهذا فإنه من الأفضل ان نتابع العمل الآن متناسين كل ما عداه».

شعرت سارة في الأيام التي تلت وكأنها قد لصقت بكرسيها في المكتب، وان حياتها كلها كانت تدور حول الآلة الكاتبة. ولما لم تغفل من هيو فريزر بادرة تعبر عن رضاه بجهداها او عدمه فقد واست نفسها بأنه، على الأقل، لم يلجأ الى الشكوى. وكان يملئ عليها مراسلاته في الصباح ثم يتركها بعد ان يصدر سيلاً من الارشادات. وبعد الغداء كانت سارة تقوم بالترتيب والتنسيق حتى اذا ما حان موعد تناول الشاي كان معظم العمل قد انتهى ولم يتبق الا انتظار توقيعه على الرسائل التي طبعتها. احياناً، وهي في طريقها الى غرفتها في الليل، كانت تجد النور ما يزال يتسرب من تحت باب المكتبة، ولكنه لم يلجأ الى طلب مساعدتها في مثل هذه الأوقات المتأخرة. اما امسياتها فكانت سارة تقضيها غالباً في القراءة او مساعدة بيدي التي كانت بين الحين والآخر تشكو من آلام الروماتيزم المبرحة. ووجدت سارة في الاستماع الى بيدي، التي كانت تملك ذخيرة حية من القصص حول طفولتها والجزيرة، مكافأة على كل المساعدات التي كانت تقدمها لها.

«يجب ان نحاولي الخروج اكثر».

قالت بيدي بحدة وقد انتهت لثوها من سرد حكاية طويلة لاحظت خلالها اصفرار وجه سارة بشيء من القلق.

«ان الأمسيات لطيفة في هذا الفصل. اذهبي للمشي احياناً بدلاً من ان تجلسي برفقة عجوز مثلي يا آنسة سارة».

الا ان سارة لم تحاول ان تعود الى البحر بعد مغامرتها الأخيرة. ولو سئلت عن السبب لما عرفت الجواب. واستعاضت عن البحر بمحاولة اكتشاف القلعة، ودراسة اسلوبها المعماري القديم باهتمام متزايد، على الرغم من جهلها بمثل هذا الموضوع. واتاح لها تجوالها فرصة التعرف على بعض الأفراد الآخرين الذين يعملون في المزرعة.

«انني اخرج احياناً. قالت وهي ترمق بيدي بنظرة مبتسمة. ولكن هنالك الكثير مما يشغلني هنا».

«انا ادرك ذلك!».

وازدادت تقطعية بيدي وضوحاً بدلاً من ان تخففي كما املت سارة،

وتابعت:

«ان السيد هيو يؤمن بالعمل الشاق بدون شك. ولكن عمه كان يتهرب من الاهتمام بمراسلاته كلها اتاحت له الفرصة، ولهذا خلف وراءه الكثير من الفوضى. وقد عانى عاصبه مصاعب جمة اثناء حياته، ولم تنفعه الشكوى ولا الوعود الكثيرة بتحسين الأمور. اما السيد هيو فهو على نقيض عمه تماماً. ولا شك انه سيستطيع تنظيم الأمور قريباً...».

«ان المستقبل هو الذي يثير قلقي، كما سبق أن ذكرت لك. ففي عمري هذا لا يألف المرء للتغيير الا بصعوبة».

عندما تهضت سارة لتصعد الى غرفتها لم يسعها الا ان تتساءل لماذا تصر بيدي على وضع ثقتها فيها. ولم تجد تفسيراً الا في احتمال ان تكون بيدي تخشى التحدث الى هيو بهذا الشأن شخصياً مما يجعلها تأمل بأن تستطيع بضع كلمات منها، بوصفها سكرتيرته، ان تجد حلاً لمشاكلها. ولكن بيدي يجب ان تدرك بأن نفوذ سارة لدى هيو قد لا يتعدى نفوذ اي شخص آخر يقيم هنا، هذا اذا لم يقل عنه. وشكت في ان يتجاوز شعور هيو بوجودها ساعات العمل اليومية في المكتب.

بعد مرور عدة ايام طلب هيو من سارة في الصباح ان ترافقه الى توبر مري. وكانت عندها تتحدث من خلال زجاج النافذة بأسى، غير شاعرة بأنه كان يراقبها حتى قال بحيوية:

«سأذهب عصر اليوم الى توبر مري، واود ان تأتي معي. هذا امر».

ولم ترغب سارة في المناقشة، خصوصاً ان شمس آذار الساطعة كانت تثير الاغراء في النفس. ورقص على وجهها الجميل بريق من الفرح غير المتوقع على الرغم من ان عينيها راحتا تنظران الى اكوام المراسلات امامها بشيء من الشعور بالذنب.

تبعث نظراته نظراتها بصبر نافذ:

«لقد استطعت ان تنجز كمية كبيرة من العمل منذ ان التحقت بخدمتي، يا آنسة ويتون، ولكنني لا اتوقع منك ان تتابعي دون فرصة للراحة».

تمتعت سارة بالموافقة فتوجه الى الباب مبتسماً بشيء من الحدة وقال:

«سأراك بعد الغداء اذن».

المظهر. ان البقع المماثلة لهذا المكان هي التي تلهم الشعراء وتدفعهم الى كتابة قصائدهم.

«لقد احب عمي هذه الجزر- جزر الهيريديز. اذ كان رجلاً اسكوتلندياً يفيض قلبه بالحب العميق لمسقط رأسه. ولكنه من المؤسف انه لم يقبل على العمل بمثل هذه الحرارة».

لم تفت سارة لهجته الجافة، واحست للحظة بنفور شديد منه. قد يبدي اهتماماً بالماضي مردداً اساطيره الرومانتيكية، ولكنه لن يسمح لنفسه مطلقاً بان يتأثر بها الى حد كبير. فلا يوجد للاحلام سوى مكان ضئيل في نفسه.

«الم تقع ابداً تحت رحمة عواطفك؟».

سألت سارة بتهور وقد ثارت في غيبتها صورة زعيم الفا المنكود، فحطت عليها نظراته بخفة.

«انت لا تتوقعين ان اجيبك على هذا السؤال يا سارة».

واعترتها موجة من الاضطراب الحار. ان «سارة» بلا شك افضل من «آنسة ويتون» ولكن مخاطبتها باسمها المجرد من شأنه ان يضع علاقتها على صعيد آخر. واتسعت عينها وهي تحقّق امامها مترددة. ان اسلوب حياتها الآمنة نسبياً حتى الآن لم يزودها بالمرونة الفكرية التي يمكن تكييفها بحيث تؤهلها لمجابهة رجل من هذا النوع. ولاول مرة في حياتها احست باضطراب في عواطفها يسببه رجل، ويعدم القدرة على العثور على الكلمات المناسبة.

وانحدرت اشعة الشمس مضيئة جانب وجهه مما اسبل عليه انطباعاً بالحيوية الفاتقة فسرت له سارة بالقسوة. وروماها بنظرة اخرى تومض بالشقاوة وكأنه على علم تام بقلّة خبرتها، واجداً في ذلك مدعاة للتسلية. «من الآن فصاعداً سأناديك «سارة» ان عبارة «آنسة ويتون» تستغرق وقتاً طويلاً».

«بالطبع. وأمل ان تحذو اختك حذوك عندما تأتي».

ومال الطريق نحو الظلال. وشعرت سارة بان الطريقة الرسمية التي تفوهت بها عباراتها الاخيرة قد بعثت التسلية في نفسه. فشعرت باعصابها تتوتر غيظاً، واستدارت اليه وعيناها تشتعلان.

٣- الاجنحة المضيفة.

ارتدت سارة ثيابها المؤلفة من تنورة صوفية أنيقة وقصيرة، وبلوزة زرقاء تنسجم معها لونها. ومشطت شعرها الاشقر الى الوراء وتركته نصف مسدول، سعيدة بالحرية التي جعلها تشعر بها بالمقارنة مع الطريقة الرصينة التي اعتادت ان تصفّف بها شعرها من اجل العمل مؤخراً، ولمست بشرتها الصافية الملساء ببعض البودرة، ووضعت مسحة من احمر الشفاه الوردى على فمها الممتلئ. ثم هرعت هابطة الدرج.

أخذت سارة تراقب الطريق، وبدأ هيو الشرح:

«على ساحل «مل» يوجد قبر يدعي السكان انه قبر ابنة اللورد الين وقبر حبيبها سيد الفا. وتزعم الاسطورة انها غرقا معاً وهما يحاولان ان يعبرا الوخ ناكيل على ظهر مركب. ومن المحتمل ان يكون الشاعر توماس كامبل قد سمع بهذه الحكاية عندما جاء للعمل هنا مدرساً عام ١٧٩٥».

«اني اذكر القصيدة».

وغامت عيناها وهي تنظر خلال النافذة الى المرتفعات الوعرة، وسرت الرعدة في جسدها.

«لا يبدو أنّ شيئاً قد تغير هنا. وكأنّ القصة حدثت البارحة».

«ان جزيرة كهذه لتحتلّ الزمن. اذا نظرت الى ما بعد الفا لاممكنك ان

تري مزيداً من الجزر الصغيرة».

سرحت سارة بنظراتها الى تلك الجزر كالمسحورة. وبدت لها الجزر البنفسجية الباهتة، الرابضة في غياهب البحر على طول خط الافق بانجاء الغرب، وكأنها ترقد على حافة العالم. فغلبها الصمت وهي تتأمل روعة

«انت تحب اغاظتي».

«ان شيئاً فيك يستفز المرء. هناك الكثير الذي يمكن ذكره في مجال الاخذ بالثأر. ولكنك احياناً ترددين الكيد بمثله».

«لا تنس انك رئيسي».

«ها... ها».

«ابتسم ثانية وهو يراقب استياءها الواضح».

«لا تدعي امراً كهذا يحبط اندفاعاتك الطبيعية».

تحملت سارة مدى السعادة التي ستشعر بها لو استطاعت توجيه صفة الى وجهه. الا يستطيع اي شيء ان يخترق تحصينات سور هذا الاسلوب الوثائق المصقول؟ انه يلعب بالالفاظ نائراً اياها باستخفاف، وكأنه يتلذذ بالاضطراب الذي تثيره.

«هل سمعت عن اختك؟».

«نعم، هذا يذكرني! وتلاشى مرحه بفجائية مزعجة. لقد خابرتني جيل بعد الغداء. ستصل غداً».

«اني اتلف للقائها».

وعلى الرغم من تحفظاتها السابقة فقد غمر صوتها رنين الصدق. ان وجود جيل يشكل حاجزاً بينها وبين هذا الرجل الذي يتأرجح مزاجه كرقاص الساعة بين مشاعر الاعجاب بالذات وبين نوع من التسامح المزعج.

هز هيو كتفيه بلا مبالاة. بينما سرحت سارة بنظراتها عبر النافذة المفتوحة، محاولة ان توجه دفة افكارها نحو معابر اكثر سلامة. وسارت السيارة على طول الشاطئ الغربي نحو قرية برغ وخليج كالغري. وشرح هيو انها باتباع الطريق يستطيعان ان يشاهدا بعض معالم الساحل قبل الوصول الى قرية توبرمري وكانت المناظر تتغير من مكان الى آخر. وبدت الارض قفراً، غير مأهولة، والمستنقعات اكثر جذباً وامتداداً.

شردت عينا سارة اللتان لاح فيهما بريق الاهتمام فوق اعشاب الخلنج. وفجأة دون تفكير، امسكت بذراعه بشدة مما جعل السيارة تمحيد عن الطريق قبل ان يستطيع استعمال الفرامل.

«آسفة!».

«قالت لاهمة وهي تشير الى طائر جثم بهدوء فوق عمود طويل».

«لم ار نسراً على هذا القرب من قبل».

«من المحتمل الا يكتب لك ان تري صقراً آخر اذا ما شرعت في الامساك بذراعي هكذا وانا اقود».

«وتوقف بالسيارة الى جانب الطريق».

«اخشى ان تصيبك خيبة الامل فهذا الطائر صقر لا نسر».

ولكن سارة كانت في حالة من الاستغراق جعلتها لا تتلفظ الا باعتذار قصير.

«انا آسفة، اعني بشأن ذراعك. هل انت متأكد بانه صقر؟».

«استدارت لتضمن النظر في الطائر مرة اخرى وعيناها تفيضان بالحيرة. لاحظ هيو الشك في تعبيرها فقال بهزة من كتفيه موضحاً:

«ان النسر طائر اضخم حجماً. وعندما يبسط جناحيه تبلغ المسافة بينها اكثر من المتر. ولونه مثل لون الصقر بني غامق، الا ان رأسه ومؤخرة عنقه تتوجهما كتلة من الريش البني الذهبي. اما الصقر كما ترين، فهو ابيض اللون من الاسفل. ان عدد الصقور في اراضي الهايلاند الغربية وويلز يفوق عددها في اي منطقة اخرى».

«الن يطير بعيداً؟».

سألت بصوت منخفض وانفاسها تخرج من حنجرتها بصعوبة. ولم تعرف فيما اذا كان السبب هو قرب هيو فريزر الشديد منها او مشاهدتها غير المتوقعة للصقر.

رفع هيو حاجبيه قليلاً وترك ذراعه تستند على المقعد خلفها بحيث لامست اصابعه كتفها، وكأنه لم يشعر بتسارع نبضاتها.

«لقد رأيت بعض الصقور تجلس بدون حراك ما يقارب الساعة. ولكن اذا ما رأى الصقر شيئاً يثير انتباهه فانه ينقض عليه بسرعة عظيمة. وهو يحب الارانب وما شابهها. ان حراس الطرائد والاحراس لا يحبون الصقور لانها في رأيهم تلتهم الطرائد التي عليهم حراستها، ولهذا فهم يقتلون عدداً كبيراً منها».

«الا تتمتع هذه الطيور الجميلة بحماية الحكومة؟».

«طبعاً وأزاح يده وهو يتحرك في مقعده. ولكن القوانين لا تنفذ

أحياناً. ومن الصعب تطبيقها في هذه المناطق .
التي لا تشكل جنة للطيور كما يبدو.
«انظروا».

هتفت سارة بحركة سريعة من جسمها، وقد حلّ رنين الحماس محل
الاسى في صوتها، وهي تلمح الصقر، الذي بدا وكأنه لم يقدر الاهتمام
المنصب عليه، يفرد جناحيه ويحلق منساباً في الفضاء. وجبت سارة
انفاسها وهي تتأمل روعة الطائر عندما مس شعاع من النور الساطع اسفل
جناحيه مضيئاً ريشها المختلف الالوان.

لاحت ابتسامة خفيفة على فم هيو. واستقرت عيناه لوهلة على وجهها
المضيء قربه قبل ان يستدير ليرى الطائر الكبير يحط على قمة صخرية في
الاعالي.

«إذا كنت تهتمين بالطيور حقيقة، فلعله بوسعنا ان نخرج معاً يوماً ما
ونذهب لمراقبة الطيور».

«عندما يتوفر لنا المزيد من الوقت».

قالت رافعة يدها لتحجب الشمس. واختفى الصقر عندما انعطف
الطريق صاعداً. لا شك ان مشاغله الكثيرة لن تتيح له ان يجد متسعاً من
الوقت مطلقاً.

«الوقت... يبدو اني لا استطيع ان اجد ما يكفي منه يا سارة».
«اعتقد ان الامر كله يرجع الى ما يريده الانسان من الحياة. سيارة
كهذه، مثلاً».

ولامست اناملها جلد مقعدها الوثير بتردد.

«قد تكونين على حق. وتبعت عيناه حركات اصابعها. ولكن سيارة
الجنازوار هذه كانت لعمي. وقد رأيت انه من الافضل استعمالها اليوم،
بدلاً من سيارتي».

داخل سارة الامتعاض اذ احسّت به يدير ملاحظتها المهمة ضدّها.
خصوصاً انها كانت على يقين بأن سيارته هو الشخصية لن تكون من النوع
الرخيص.

«هل تحسنين القيادة يا سارة؟».

«نعم، أقود».

واستعادت سارة في ذهنها سيارتها الصغيرة التي قدمها لها والداه هدية
بمناسبة عيد ميلادها الاخير.

«اسمح لك باستعارة هذه السيارة لو شعرت أن بوسعك قيادتها.
سأدعك تجربتها بعد تناول الشاي في العصر. ستعادين عليها بسرعة».
تألفت عينا سارة ابتهاجاً، فقد كانت في ريعان الشباب، وعلى شيء
من التهور تحت قناع السلبية التي ولدتها في نفسها احداث الاسابيع
الاخيرة.

«الا تخشى ان اتصرف بحماقة؟».

قالت وهي تبتسم بسعادة ابتسامة اشرق بها وجهها المغمم بالحوية.
«لقد بدأت اظن بانك لن تفعل هذا ابداً».

وتفحصها لوهلة متسلماً بمراقبتها، ملاحظاً التغيير الذي طرأ على
قسماتها المتألقة.

«لعله سيكتب لنا ان نرى البرقة تنزع الى الوجود يوماً ما».

فعدت الى سارة جديتها على الفور. لماذا يجب ان يشبط ويحبط كل
شيء. لعلها هي المخطئة لأنها سمحت لنفسها بأن تعبر عن سرور فاق
الحدود بفكرة قيادة هذه السيارة. ألا ان ملاحظته اصابته وترأ حساساً في
اعماقها، رغبة صادقة في الحياة لم تستطع ان تحققها لعنة اسابيع.
وتراجعت سارة مذكرة نفسها بأن هيو، على الاغلب، في لجوئه الى
استخدام اسلوب المداعبة معها انما يعاملها كأخته الصغرى جيل. وان جل
ما يقصده هو ايقاعها في شباك مزاحه. ولهذا فان افضل خطة للدفاع هي
التجاهل.

لزمت سارة الصمت محافظة على ابتسامتها بعناد اذ احسّت به ينتظر منها
رداً لاذعاً. وداخلها ارتياح كبير عندما وجدت السيارة تقترب فجأة من قرية
توبرمري.

بعد ان توقفت السيارة تركها هيو هازأ رأسه هزة مقتضبة. وبدا من
الواضح انه طردها من ذهنه بالسهولة نفسها التي طردها حديثهما الشائك.
الأ انه تذكر بأن يقول لها بانه سيقابلها فيها بعد لشرب الشاي.

وجدت سارة توبرمري بلدة صغيرة حلوة على الشاطئ الشمالي
الشرقي للجزيرة. وتحوّلت سارة في البلدة سعيدة بحريتها، وقد شعرت

بالاسترخاء لأول مرة بعد عدة أيام قضتها في صحبة الآلة الكاتبة.
شعرت سارة، رغم قصر المدة التي مضت على مغادرتها للقلعة، بأن
الاحساس الخائق الذي قبض على قلبها بأصابعه الغولاذية بعد وفاة والديها
قد اخذ يتلاشى. انها لن تفهم مطلقاً لماذا تقع مثل هذه الحوادث. ولكن
حدة المها الثاقب قد اخذت تخنفي ليحل محلها نوع من القبول بالمحتوم،
اخف احتمالاً. وداخل سارة، واشعة الشمس الدافئة تغمرها، شعور
براحة البال ظنت انه قد فارقتها الى الابد.

ليت جين كانت هنا. يجب ان تكتب لها لتصف مشاعرها. فلولا جين لما
كانت سارة في هذا المكان. وسارت باتجاه المرفأ. ووجدت افكارها تنتقل
من جين الى جيمس كار الذي وقع في حب جين منذ سنوات عديدة.
وكانت ام سارة تعتقد بان زواجاً بين جين وجيمس سيكون مثالياً. الا ان
جين عبرت عن ترددها دائماً. وبدون سبب واضح، شردت افكار سارة الى
هيو فريزر.

وهزت كتفها بصبر نافد. لماذا تعود افكارها دائماً اليه؟
قررت سارة، مصممة، ان تنسى فريزر لفترة من الوقت. وسارت
متجولة في البلدة، ملازمة الشارع الرئيسي الذي كان يمتد بمحاذاة جدار
المرفأ. وراحت تنظر الى البيوت، التي كانت من طراز القرن الثامن عشر،
بجدرانها الحجرية المتعددة الالوان وسطوحها المائلة. وبدا كل شيء نظيفاً
ولامعاً، ولاستغرابها، مهجوراً.

واحسّت بالنعاس الذي كان يحوم في الفضاء حولها يصيبها بالعدوى.
فاستسلمت سارة له، متكئة على جدار المرفأ المنخفض، تاركة هواء البحر
النقي يعبث بشعرها المصفف بعناية ويسري فوق بشرتها برقة. واحسّت
بجفنيها يطبقان والدفع يغمرهما.

وعلى حين غرة مدفوعة بنوع من الحدس الحاد، انتفضت سارة وانجهت
بنظراتها الى الطريق القريب منها. وشاهدت لدهشتها، الشاب الذي انقذ
حقيبتها يوم وصولها الى الجزيرة يخرج من أحد الامكنة المواجهة للبحر.
وطرفت بعينيها ثم نظرت مرة اخرى. انه الشاب الغريب الملتحي نفسه
ويمكنها التعرف عليه في اي مكان.

بينما اخذت سارة تراقبه بدون ان يراها، حمل هو بعض صناديق المؤونة

في صندوق سيارته. انه ما يزال هنا اذن! لعله احد سكان الجزيرة، اولعله
استأجر بيتاً هنا، مما يفسر حاجته لصناديق المؤونة هذه. علت جين سارة
تقطعية عابسة بدون مبرر وراقبته يتتبع بسيارته. كان قد نظر باتجاهها نظرة
عابرة بدون ان يلوح عليه ان يعرفها. هذا ليس غريباً فيها لم يتقابلوا إلا لمدة
قصيرة. ولكن سارة وجدت تفسيرها صعباً على التصديق. وعادت الى
المنظر تتأمله عتارة.

في طريق العودة ذكرت سارة مقابلتها لهذا الشاب امام هيو.
«اعتقد ان كثيراً من السياح يزورون جزيرة «مل» كل عام؟»
قالت بتردد، وتمنت للحظتها لو انها لم تذكر شيئاً عن هذا الشاب لهيو
لأنها خشيت ان يظن بها الفضول الشديد.
«هل يشير اهتمامك يا سارة؟»

«ليس الى حد كبير. انني استغرب فقط لماذا لم يتابع رحلته»
«لا تدعي الامر يزعجك. واختلط المكر بابتسامته القاسية. لا تنسي ان
المجتمعات الصغيرة تولد الفضول. هل سبق لك ان عشت في بلدة
صغيرة، يا سارة؟»

«ان الناس في المجتمعات الصغيرة يتمون بالآخرين»
«ان في مقدورهم ايضاً ان يسببوا الاختناق»
أجابها بحدة.
«لا اظن ذلك!»

«اذن دعينا نتفق لا ان نختلف. قال متشداً. يبدو اننا نختلف حول
مواضيع كثيرة».

لاحظت سارة في كلماته شيئاً من التبرم. وكأنه كان يكتشف، كارهاً،
ضرورة ان يسلم بوجود انماط مختلفة للعيش. هل يجد يا ترى، الضغط
المواصل الذي تتطلبه حياة اكثر استقراراً مدعاة للغضب الشديد؟ وهو الذي
تعوّد على الاستمتاع بحريته وعلى التجول حول العالم. وعادت سارة
بانتباهها الى ملاحظته الاخيرة.

«هل تجد انه امر غريب الا يكون بيننا اشياء كثيرة مشتركة؟»
«ها! وضحك دافعاً برأسه الداكن الى الوراء. ألم يذكر لك احد يا
سارة، بأن الرجال والنساء لا يشتركون الا في القليل وأن العاطفة الوحيدة

التي تستطيع أحياناً أن تسد الفجوة بينهم هي عاطفة خطيرة جداً؟
أدارت سارة رأسها بسرعة. كان من الممكن أن تجيب بصراحة...
لا. ولكن لأنها شعرت بأنه كان يطاء أرضاً محرمة عن عمد، فقد قررت أن
تلتزم الصمت. وبالإضافة، لماذا يجب أن تعترف له بنقصان تجربتها؟ أنه
يملك من الصلف والاعتداد بالنفس ما سيجعله يرى في هذا مدعاة
للتسلية.

«يجب أن تقدمي على المغامرة يوماً ما. قال ساخراً عندما استمرت على
صمتها. إلا أنني لا انصحك بأن تختاري سائحاً غريباً».

«لا تخش فلن افعل. بوسعي الانتظار حتى أعود إلى لندن».
المهم ألا أقع في حبك - ابتهلت سارة راجية. وشعرت بنظراته العابثة
تعود إلى وجهها وتتمهل فوق فمها الأعزل قبل أن تنحرف إلى الطريق.
وشعرت بنبضاتها تتسارع وكأنها تجري.

وعادت السخرية إلى وجهه، وتتم قائلًا:
«طبعاً! العاصمة العظيمة! ولكنك تحبين التظاهر بأنك تستطيعين
العيش بعيداً عنها».

وهز كتفيه بحركة لا مبالاة، وكأنه فقد الاهتمام بالحوار بينها. وعاد
للتركز على القيادة. فشعرت سارة بأعصابها المتوترة تسترخي تدريجياً.
سلكا في طريق عودتهما الطريق المحاذي للشاطئ الشرقي إلى سالن.
اتكأت سارة في مقعدها وغمضت عينيها نصف اغماضة. بينما انجذبت
السيارة نحو المنعطف التالي.

«ماذا تفكرين؟»
وابتسم بتكاسل، مبدداً شكوكها في أن تكون أفكاره في مكان آخر.
وقبل أن تستطيع الإجابة أدار السيارة فجأة وأوقفها. ثم قفز من الباب.
رأت سارة سيارة أخرى واقفة قريباً: سيارة طويلة وثيرة وقفت بجانبها
فتاة طويلة سوداء الشعر. وبدا من الواضح أنها كانت في ورطة. إذ راحت
ترمق سيارتها بكابة. ولكنها عندما لمحت هيو، اختفى غيوسها وحل محله
تعبير بالدهشة والسرور.

«هيو! هتفت بحبور ثم عانقته. لم يخطر لي ببال أن أجده هنا».
ضحك هيو. وراقبته سارة بفضول وهو يعانق الفتاة بخفة.

«أنني سعيد برؤيتك للمرة الثانية يا بيت. ولكنني ظننت أنك سافرت
إلى فرنسا».

وضمها إليه ثانية، بحنان، كما لاحظت سارة. وومضت فكرة في ذهنها
وهي تتذكر ما قالت له بيدي مساء وصولها إلى القلعة عن احتمال زواج هيو
بفتاة ذهبت في رحلة إلى فرنسا. هل هي الفتاة نفسها أم لا؟

«لقد كنت هناك. وصلت البارحة فقط. وظننت أنه من الأفضل أن
أخرج بسيارتي لأنني أتركها معظم الوقت في الكاراج. ولكن يا لسوء
الحظ، إحدى العجلات تعطلت، ولهذا وقفت أنتظر أمله أن يأتي شخص
ما ليساعدني على استبدال العجلة، إلا أنني لم أتوقع أن تحضرائ».

ابتسم هيو بتكاسل، وانحنى ليفحص الدولاب.

«أنني دائماً أعرف متى أظهر».
قال عابثاً. ولاحظت سارة لمعان أسنانه البيضاء الناصعة. وبدا لها، إذ
أشرق وجهه ضاحكاً مما أبرز انحناء رأسه المتكبر، كقرصان أسمر. ولم
يغامرها الشك مطلقاً في أنه يستطيع التصرف كقرصان أيضاً.

لاح لسارة أن عيني بيت لم يفارقا وجه هيو بتاتاً وهي تسأله أين كان.
«في تورمري، لحسن حظك. وأشار بيده بإهمال إلى حيث جلست
سارة. مع سكرتيري. ثم قال معرفاً. سارة ويتون، أقدم لك بيت
اسكويث».

«سكرتيرة؟»

وأدارت بيت رأسها لتستقر بنظراتها الدهشة على سارة التي كانت ما
تزال جالسة في السيارة. وبدا واضحاً أنها لم تشعر بوجودها قبلاً.

«لماذا بحق السماء، تحتاج إلى سكرتيرة في لوخ غويل؟»
قالت بلهجة ثاقبة باردة وهي تستدير غاضبة لتواجه هيو الذي أزاح
سترته استعداداً لتغيير العجلة.

«قد تستغربين!».

قال بلهجة متعكبة، وحطت نظراته الساخرة للحظة وجيزة على وجه
سارة الذي احمراً غضباً تحت وطأة نظرات بيت العدائية.

«كان بالإمكان أن أساعدك أنا».

ولم تسمع رد هيو، ولكن بيت بدت مقتنعة بإجابته إذ استرخت

عضلات وجهها وركعت على ركبتيها بجانبه هو تبادل معه الحديث...
كما يلوح.

علا العبوس وجهه سارة. لا شك ان بيث هي المرأة التي لمحت بيدي بان
هو قد يتزوجها في المستقبل. واعتصر قلبها شعور بالانقباض سارعت
لطرده.

وصلت جيل في اليوم التالي. كان الصباح قد بدأ بداية سيئة بالنسبة الى
سارة عندما ايقظتها كاتي قبل الساعة السابعة لتخبرها ان بيدي اضطرت
للزوم الفراش بسبب مرضها، مما دفع هيو الى ان يرسلها الى سارة ليطلب
منها القيام باعداد الفطور.
«لقد عاودتها آلامها».

شرحت كاتي بينما كانت سارة تهبط الدرج بسرعة.
«في العادة عندما لا تستطيع النهوض من فراشها اقوم انا باعداد
الفطور. ولكنني عندما قمت بهذه المهمة في المرة الاخيرة سكبت ابريق
الشاي على يدي وحرقت الخبز. وكانت النتيجة ان راح السيد فريزر
المعجوز يشككي من سوء الهضم طول النهار. ما كنت احب ان ازعجك، يا
آنسة سارة، ولكن السيد هيو قال بانه متأكد من انك طباحة ماهرة».
وماذا لو كنت؟ تساءلت سارة بغيظ وهي ترتدي مريولاً من مرايل
بيدي الكبيرة البيضاء. انه لا يتوقع منها ان تقوم بجميع الاعباء؟ لا شك
انها ستسمعه قريباً همس، معلقاً على الروماتيزم الذي تعاني منه بيدي:
«انا واثق انك بخبرتك في التمرريض يا سارة...».

ورفضت سارة ان تعترف بان سوء المزاج الذي كانت تعاني منه هذا
الصباح قد يكون نتيجة لتجربة الليلة الفائتة. فبعد ان تركا بيث بدا
واضحاً انه نسي وعده بشأن السماح لها باستعمال سيارته أو ان السبب، يا
تري، هو ان لقاءها ببيت البارحة قد افسد امسيتهما. خصوصاً أن الاخيرة
قد افلحت بالتلميح لسارة، عن طريق التفوه ببعض الكلمات الباردة، بان
وجودها في لوخ غويل غير مرغوب فيه. ولكن من المحتمل ان هيو الذي
كان مشغولاً بتركيب الدولاب عندئذ لم يسمع هذه الكلمات.
سارعت سارة الى سكب بعض الشاي. ورتبت بعض قطع البسكويت
بذوق فوق صحن مزين.

«سأخذ هذه الصينية الى بيدي بنفسني. قالت لكاتي التي راحت تحوم
حولها. لعلمي استطيع ان اساعدها قليلاً قبل ان اتناول فطوري».

اشتكت بيدي لسارة من آلام مبرحة في الورك. وقالت ان الحبوب التي
وصفها لها الطبيب لم تناسبها مما دفعها لأن تلقي بها في المغسلة. ويدت
سعيدة بالشاي، إلا انها انبت سارة على تحملها هذا العبء.
«اظن ان الاسبرين ينفع في مثل هذه الحالات».

قالت وهي تخرج حبتين من زجاجة وجدهتها في المطبخ. ولدهشتها
ابتلعت بيدي الحبتين من دون معارضة، تحت مراقبة سارة التي سجلت في
ذهنها ضرورة ان تتحدث الى الطبيب عندما يأتي لزيارة بيدي. ولما حاولت
الاخيرة ان تغادر فراشها قالت لها سارة بحزم:

«ان ما تحتاجين اليه الآن هو الدفء والراحة. ثم ان هنالك فتاة اخرى
في البيت بالاضافة الى والي جيل التي ستصل اليوم. من المؤكد اننا
سنستطيع تدبير الامور فيها بيننا».

«الآنسة جيل؟ وغمر الاستياء عيني بيدي الزرقاوين بلون البحر. ماذا
سيقول السيد هيو اذا ما لزم الفراش؟»
اجابت سارة بلهجة لازعة وهي تغلق الباب.

«شيئاً لا يمكن مقارنته بما سأقوله انا، لو غادرت الفراش».
وفكرت سارة بالسيد هيو، وهي في طريقها الى المطبخ. لا شك أن
بيدي ستقوى على مغادرة الفراش خلال يومين او ثلاثة. ولكن اذا ما
ارادها هيو ان تقوم بالمطبخ فعليه ان يحاول تدبير اموره في المكتب من دون
مساعدها. اذ ليس باستطاعتها ان تقوم بالمهمتين معاً. ثم انه لن يؤذيه
اكتشاف انها ليست سهلة الانقياد بالدرجة التي يتخيلها.

وجدت هيو في انتظارها في المطبخ، واقفا قرب النافذة ينظر الى
الساحة، وقد كادت كفاه العريضتان تملآن النافذة الطويلة، فغمر سارة
شعور مثير لجمها عن الكلام لحظة. واستدار هيو عندما سمع خطواتها،
وحطت نظراته على وجهها اليافع الصافي.

«صباح الخير يا سارة. اظن انه من الاربح لك ان اتناول الفطور معك
هنا».

كم تبدو كلماته حافلة بالمودة! ولكن سارة ليست بالفتاة التي تخدعها

مثل هذه اللهجة التي تخفي في طياتها نفاد الصبر الذي يتصف به الرجال وبالكاد تستطيع ابتسامته ان تخفي عدم ترحيبه بهذا التغيير في الروتين اليومي . واوامات سارة برأسها بفتور وهي تضع بعض شرائح اللحم تحت المشواة . وسألته بلهجة حادة قبل ان تتناول المقلاة :
«كم بيضة تريد؟»

واتسعت ابتسامته هيو الالهية وهو يقترب ليقف بجانبها .
«ان مزاجنا لا يبدو على ما يرام هذا الصباح ، ليس كذلك؟» .
ونظر اليها من فوق انفه المستقيم بعينين تتألقان بالحيث .
«هل انت مغتظة مني لانني طلبت منك ان تعدي الفطور؟» .
ضحكت سارة على الرغم منها ، وتلاشى غضبها .
«في الحقيقة لا . وقابلته عيناها الزرقاوان بجراة . ولكنك تحب اعطاء الاوامر» .

«هل يزعجك ان تمدي يد العون يا سارة؟» .
«لا ، اذا ما وجه الى الطلب بالاسلوب الصحيح» .
وادركت بان تصرفها كان طفولياً ، ولكن خصلة من العناد في طبعها جعلتها تصر على مسلكها مع علمها بانه انما كان يحاول استثارها عن عمد .
وابتسم هيو :

«لقد اعتدت على اعطاء الاوامر يا سارة . حتى انني كدت انسى كيف اصوغ طلباتي بالاسلوب الصحيح . لعلك تستطيعين ان تعلميني» .
كان ما يزال واقفاً بجانبها مهيمنا قرب الموقد . يبدو انه كان يمارس رياضته الصباحية على ظهر حصانه .

«لن يكون بوسعي ان افعل كل شيء» .
وكسرت بيضة ، من دون احتراس في المقلاة محاولة ان تستعيد تمالكها لنفسها .

«وماذا بشأن المكتب؟» .
ولكن سارة لم تريح هذه الجولة ايضاً .
«استطيع ان اطلب المساعدة من بيت عندما تأتي هذا المساء» .
قال بلطف وعينه تستقران على بياض عنقها المصقول فوق فتحة قميصها .

«لقد عرضت المساعدة» .

وضعت سارة الزبدة فوق البيض بأسرع مما يجب ، فتطايرت الرشاشات الحارة بلامسة ذراعها مما جعلها تطلق صيحة الم قصيرة قبل ان تسحب ذراعها بسرعة ، رامية الملعقة من يدها . وغامت عيناها بدموع اليأس وهي تحاول ان تغطي المساحة المحروقة بيدها .
اطلق هيو صيحة مختنقة .

«دعيني ارى ما اصابك ! لقد ظننت ان كاتي هي الوحيدة المهمة هنا . كم مرة كتب علي ان انقذك يا ترى؟» .
والقى نظرة سريعة على وجهها المصدوم . ثم توجه الى احدى الخزائن وعاد حاملاً انبوية مرهم غطى به الحرق . وكانت هذه هي المرة الثانية التي أشار فيها الى مغامرتها فوق الصخور منذ حدوثها .
«هذا يكفي!» .

صرخت سارة بحدة اذ افرغ محتويات الانبوب فوق يدها . وآلتها لسعة ملمس اصابعه اكثر من لسعة الحرق . واحست وهي ترتجف بانها عزلاء تجاهه . وتمتمت بشيء من الحجل وهي تسحب ذراعها :
«آسفة . ان الحرق بسيط . وهو لا يستدعي الخوف الذي اصابني» .
وشمت رائحة شيء يحترق فسارعت مبتعدة لتنقذ محتويات المقلاة .
«اظن انه يمكنني ان اساعدك في المكتب بعد الغداء ، بعد انتهائي من العمل هنا . كاتي تستطيع تصريف امور المطبخ بمفردها لمدة ساعة او ساعتين» .

«اذن ، لن نحتاج الى بيت كما يبدو لي» .
قال معلقاً بدمائه ، وربما بنظرة متأملة من عينيه اللتين راحتا تبحثان عن ضمادة في صندوق الاسعاف .
«ليس بالضرورة ، ولكن افعل ما تشاء» .

وعضت على شفتها بأسناتها البيضاء المصقوفة ، وهي تمد يدها اليه مطيعة ، فوضع فوقها الضمادة بحزم وبإراقة . ووشت حركة اصابعه الماهرة بخبرة لا بأس بها . كانت ذراعها لا تزال تؤلمها ، ولكنها احست بالدماء تعود الى وجنتيها . ولم تعرف لماذا لم تستطع ان تحبذ فكرة قدوم بيت لمساعدة هيو . وخالجها الشعور بانه قد ضمن هذا كما اوحى به الاختلاجة الغريبة

التي طافت بقمه .

وضغط هيو على الضمادة ضغطة خفيفة مقصودة .

«عندما تنتهين من تنسيق الامور داخل رأسك الجذاب هذا، هل يمكننا ان نتناول الفطور؟ فنجان من الشاي الحار وجبتان من هذه الزجاجة ستكون لك الشفاء العاجل» .

ومد لها يده بزجاجة الاسبرين التي كانت قد وضعتها على المائدة بعد عودتها من غرفة بيدي .

«شكراً» .

صممت سارة الا تعطي نفسها فرصة للعبوس . وبعد الفطور انغمست في العمل بعيداً عن هيو . وبينما كانت تعد طعام الغداء راحت تفكر بالشعبات والتعقيدات التي يتطلبها العمل في بيت كبير . ان الجو الذي تخلقه ظروف مثل هذا العمل كفيلة بان تولد جواً من الالفة لا يجده المرء في المكاتب الصغيرة . واحست سارة بخطر ان تحول بينها مثل هذه الالفة وبين الاحتفاظ بعلاقتها مع رئيسها على المستوى الرسمي . ولاحظت انها قد بدأت تلاقي صعوبة متزايدة في التفكير بهيو كرئيس فقط . وهي لم تنس كيف انها كانت على وشك ان تضع رأسها على كتفه هذا الصباح . لعلة من حسن حظها انه سرعان ما فقد الاهتمام بما اصاب يدها واستسلم لعدم اللامبالاة .

وجدت سارة بعض الوقت للتحدث الى طبيب العائلة ايان ماكنزي ، بعد ان عثرت على بطاقته بعد بحث طويل في خزانة في القاعة . يجب ان تذكر بان تطلب من هيو الحصول على دليل للهاتف نظراً لعدم وجود دليل في البيت .

بعد العثور على الرقم ، اتصلت بالعيادة وتحدثت الى الطبيب بنفسها . نعم . بإمكانه ان يأتي لزيارة بيدي فيما بعد . وسيجلب معه بعض الحبوب . «ان ايجاد العلاج المناسب يعتمد على الخطأ والتجربة» .

قال متنبهاً عندما ذكرت له ما فعلته بيدي بالحبوب التي وصفها سابقاً . ولما اقترحت عليه بوجل ان لزوم الفراش قد يشكل العلاج الافضل ، قهقه بصوت عال قائلاً قبل ان يضع سماعة الهاتف :

«جربي ان تحاولي فقط اقناعها بلزوم السرير» .

رأت سارة وهي تساعد كاتي على اعداد غرفة جيل بان يومها هذا كان مزعجاً منذ بدايته . واصغت الى كاتي تسر اليها بان صديقها لن يأتي لزيارتها في نهاية عطلة الاسبوع .

«على كل ، لقد بدأت امل من صحبتها» .

قالت غاضبة وهي تمسح الغبار بحيوية زائدة جعلت الحشب يلتصع . «انه يعمل على الشاطئ المقابل في احد الفنادق المشغولة جداً، مما لا يتيح له فرصة للخروج» .

«اذا استمر على هذا المنوال فسأبحث عن شخص آخر» .

أثارت لهجة التهديد في كلماتها ابتسامة سارة . وبدأ لها وهي تضع الللمسة الاخيرة على غطاء السرير الساتان بأن كاتي ايضاً تعاني من سوء الحظ هذا اليوم . ولكن الفكرة لم تبعث السلوى في نفسها بل يأساً متزايداً .

وابتسمت سارة ابتسامة خفيفة.
«آه، فهمت».

ولكن التعبير المرتسم على وجهها وشى بوضوح بأنها لم تفهم. ولازمها الشك للحظة وهي تتأمل بشرة سارة المصقولة. وفجأة، وكأنها قررت ان تغير من أسلوبها، مدت يدها الى سارة مصافحة وموضحة دون ان تدعو الحاجة الى ذلك:

«انا جيل. آسفة اذا كنت تصرّفت ببعض الوقاحة. ولكن اللوم يقع على هيو لانه لا يشرح لي اي شيء كما يجب. ويستعمل معي دائماً الأسلوب الخاطيء».

اذن لقد ذكر لها شيئاً عن الموضوع! واجابت سارة متسائلة، متعمدة ان تنطق بالكلمات باستخفاف لكي تكتم استياءها:

«اخشى ألا استطيع متابعة افكارك؟».

لكن جيل لم تجب بسرعة، وابتسمت برضى كالقطة وهي تكور جسمها لتستقر فوق الكنبه. ويذا واضحاً انها احست باضطراب سارة وانها حياً في العناد لم تجد ما يدعو الى العجلة لتهدئة خاطرها.

«لقد ذكر لي- قالت بابتسامة- بأن وجودك هنا هو من اجلي من بعض النواحي. ويجب ان تعرفي انه ليس من طبعه الاهتمام بي ولهذا اتساءل لماذا يأخذ على عاتقه فجأة امر الاعتناء بي؟ بل لماذا يسمح لنفسه بان يظن بأنني بحاجة الى حارس أو مربية؟ لذلك لا تستغري اذ تجدينني اشك في تصرفاته. من المؤكد انه ليس هنالك من سبب يجعله يتحمل كل هذا الازعاج من اجلي».

«اخشى انك اسأت تفسير كلماتي».

قالت سارة وهي تجلس على طرف السرير، وقد داخلها شيء من الارتياح. يبدو واضحاً أن جيل قد خلطت الامور. كان من الافضل ألا يذكر هيو شيئاً امامها. وحلت محل استيائها السابق موجة من الغيظ. ان الرجال نادراً ما يبرهنون على البراعة والذكاء في تصرفاتهم تجاه اخواتهم الاصغر سناً.

«ان سبب وجودي هنا في الحقيقة هو مساعدة اخيك لكي ينظم الامور المتعلقة بميراث عمك. لا اتوقع ان ابقى هنا مدة طويلة. ولهذا ليس هنالك

٤- خطوات نحو اللهب

بعد الغداء بقليل، توجه هيو الى سالن ليقابل اخته في المطار. وكانت سارة في غرفتها بعد الظهر عندما سمعت طرقة سريعة على بابها. وقبل ان تجد الوقت لتطلب من الطارق الدخول، دخلت الغرفة فتاة شقراء صغيرة لها ابتسامة مفعمة بالحياة. وتقوس حاجبا الفتاة وهي تسأل:

«اظن انك سكرتيرة هيو الجديدة. لقد جئت لكي اشاهدك».

وتوقفت عن الكلام بغتة لتحقق في سارة بعينين واسعتين:

«يجب ان اعترف بأنني لم اتوقع شخصاً مثلك. اين عثر عليك؟».

«في الحقيقة لم يعثر هيو علي. لقد أرسلوني اليه».

ردت سارة بثبات، ملقية على الفتاة نظرة سريعة، وعرفت بحديثها بأن هذه الفتاة لا بد ان تكون جيل، على الرغم من انه لم يكن هناك شبه بين الاثنين فيما عدا اشتراكهما، على ما يبدو، في خصلة العجرفة. ولاح لسارة ان هذا المزيج من التكبر وعدم الكلفة الذي تتصف به الاثنان مثير للاضطراب، وهو يبرهن، اكثر من اي شيء آخر على انها من سلالة عائلة فريزر. وانتظرت سارة بصمت بينما راحت جيل تفكر فيما قالته لها.

«ارسلوك؟».

سألت جيل بصوت رفيع مفعم بالفضول اذ لم تفتها قامة سارة الرشيقه وتقاطيعها الجميلة:

«ماذا تعنين بحق الساء؟ من ارسلك؟».

«لقد طلب السيد فريزر من محاميي ان يرسل له سكرتيرة. وكانت النتيجة ان وجدت نفسي هنا».

ما يدعو لقلقك».

على عكس ما أملت سارة، لم يكن من السهل تهدئة مخاوف جيل التي استطردت وعيناها تضيقان، بتعبير ماكر: «إن أسبابك قد تكون واضحة. وعبس وجهها. ولكن ماذا بشأن هيو؟».

ترددت سارة قبل أن تجيب. أن جيل لم تلمح بعد بآية طريقة إلى صديقها الذي سبب كل هذا الأزعاج لآخيه. ولكن بدا من الواضح أنها كانت تفكر فيه.

حسناً! أنها لا تنوي أن تتدخل في أية خلافات عائلية إن أمكنها أن تتجنب ذلك. ولن تشير إلى صديق جيل إلا إذا ذكرته أمامها. من حسن الحظ أن هيو لا يريد أن يتحدث عنه، لأن خطته لا يمكن أن تنجح إلا إذا توفرت السرية الكافية. واحسنت سارة بالخجل من نفسها للطريقة الحاذقة التي راحت تزن الأمور بها، فسارعت للإجابة على سؤال جيل بحرارة ما كانت لتظهرها لو كان الموقف مختلفاً.

«ألا تعتقدين بأنك تبالغين قليلاً يا جيل؟ أن السيد فريزر ذكر لي بأنه يشعر بالمسؤولية تجاهك، خصوصاً بعد مرضك وبسبب سفر والدتك إلى أمريكا».

«وعندما تعود سيسلمني لها كطرد بريدي، ملفوفة بعناية وسليمة من العطب. مسكين هيو! اظن أنني أستطيع تخيل الصورة!». وضحكت جيل وعيناها تومضان سروراً:

«أنه يكره القيود من أي نوع. وأمي تقول أنه قد امتنع عن الزواج لهذا السبب فهو لن يسمح لنفسه أن يسرح في العالم طويلاً وعرضاً تاركاً زوجته اليافعة وحدها في المنزل».

قفزت سارة إلى قدميها بقلق، وشعرت بنظرات جيل تتفحصها بامعان وكأنها لم تقتنع بعد. أن جيل مكاراة! قد تكون فتاة مدلعة، ولكنها تبدو عاقلة ما فيه الكفاية. وعلى علم بما تريد، على عكس سارة. ثم أنها على ما يظهر، من النوع الذي لا يتورع عن اللجوء إلى الأساليب الملتوية إذا دعت الحاجة، ولهذا فإن أفضل خطة للدفاع الآن هي التراجع بلا شك. «يجب أن اسرع! هتفت ملقية نظرة سريعة على ساعتها. اعذرني فقد

كدت أنسى بيدي. أنها في السرير، وعلى أن اذهب إليها لآتين حالتها». «آه، هذا يذكرني...».

تثاءبت جيل وهي تفرد جسمها، ومطت ذراعيها قائلة: «لقد أخبرني هيو بأن الدكتور ماكنتزي يريد التحدث إليك. وهذا بالحقيقة هو سبب قدومي إلى هنا».

توقفت سارة وهي في منتصف الطريق إلى الباب، وادارت رأسها المضيء لتلقي نظرة مغتظة على جيل. «كان بوسعك أن تخبريني قبل الآن!».

«أسفة لقد نسيت. قالت جيل بهزة لا مبالاة من كثفيها. لا تنزعجي فهو شخص عزيز عجوز. أنا واثقة أنه لن يتضايق من الانتظار، خصوصاً عندما يجد الشخص الذي اضطره للانتظار فتاة مثلك».

هرعت سارة تهبط الدرج دون أن تتمهل لتسمع المزيد. أنها تعرف هذه النعوت التي يستعملها الناس عند الإشارة إلى أطباهم حق المعرفة، مثل «عزيز، ولطيف، وعجوز».

عندما وصلت سارة إلى القاعة وجدت هيو يتحدث إلى رجل أصغر منه سناً فخممت بأن يكون أحد جيرانه. وغمرها الاستياء لأنها لم تجد أثراً لأي طبيب.

استدار هيو فسارت نحو الرجلين فوق السجادة الثمينة شاعرة بنظراته تنحدر على وجهها القلق، ولمحت شبح ابتسامة على فمه الصارم. «اظن أنه من الأفضل أن أقدمك إلى الدكتور ماكنتزي يا سارة، لأنه يبدو أنك أخذت على عاتقك أمر الاعتناء بيدي».

أوشكت سارة أن ترد بالطريقة الجافة نفسها لولا أنها تمالكت نفسها فهذه هي طريقته في التعبير! وتقدمت إلى الطبيب وصافحته وقد غمرتها الدهشة. لعل جيل، بالفعل، ترى الدكتور ماكنتزي رجلاً متقدماً بالسن، ولكن سارة شكت في هذا. لم يكن الطبيب جميل الطلعة، إلا أن وجهه كان يشع نوعاً من الجاذبية البسيطة غير المتكلفة، وكان أصغر سناً من هيو، وأشقر الشعر مثلها.

احسنت سارة في نظرات الطبيب إليها ببريق الاهتمام. ولم يكن في إعجابها، الذي بدا واضحاً في عينيه الرماديتين، أي رياء.

«اذن انت هي الأنسة التي تريد ان تجبر بيدي على التزام السرير؟»
قال مبتسماً وهو يضغط بحزم على اصابعها النحيلة، وعيناه شاخصتان الى وجنتيها المحمرتين.

ما كان بإمكان سارة ان تحزر بأن مسلك الطبيب ماكيزي تجاهها لم يكن عادياً بالنسبة اليه. ولكن وجدت اعجابه الصريح بها مشجعاً ومثيراً بعد نهار طويل عمل. وبغريزتها الانثوية، اهملت تقطيعه هيو الخفيفة، مستجيبة لابتسامة الطبيب بابتسامة مماثلة فقالت:

«سأجرب».

وسحب اصابعها من يده باحتراس، سائلة فيها اذا كان قد ترك بعض الحبوب لكي تستعملها بيدي.

«ان بيدي لا تستطيع ان تذكر اسم الحبوب التي وصفتها لها».
«معى بعض الحبوب في السيارة. سأعطيك بعضها اذا ما رافقتني».
وتابع وعيناه لا تفارقان وجهها: سيكون مفعولها افضل بالطبع اذا استطعت ان تحثيها على البقاء في السرير».

«سأحاول».

ردت سارة، وشعرت فجأة بهيو خلفها يراقبها باستهزاء. فتظاهرت بعدم الاهتمام وابتسمت للطبيب ثانية. لقد اصبحت خبيرة بخصلة عدم التسامح في طبع هيو، لكنها لم تستطع ان تدرا غصة الالم مما اثار الاستياء في نفسها. واعترتها الدهشة والغبط معاً عندما تدخل هيو في الحديث قائلاً بصوت جاف:

«يبدو من الواضح انك لست مستعجلاً يا ايان، ولهذا ارجوك ان تفحص ذراع سارة قبل ذهابك. لقد سكبت بعض السمن الحار عليها في الصباح اذ انها ليست دائماً بمثل الكفاءة التي تبدو عليها».

اشتعلت عينا سارة غضباً وهي تجابه نظراته الساخرة. صحيح ان ذراعها تؤلمها، ولكن الالم ليس حاداً. وتمنت بارتباك لو انه لم يذكرها. وحولت نظراتها عنه مبتسمة لا يان، محاولة ان تستعيد بعض توازنها.

«لا داعي لان تزعج نفسك».

احتجت سارة عندما همّ الطبيب برفع الضمادة، متجاهلة عبوسه الفجائي.

«لقد فحصت يدي بنفسى بعد الغداء، ووجدتها في حالة جيدة».
«كيف عرفت؟».

وازداد وجه ايان عبوساً وتابع نافذ الصبر:
«هل لديك خبرة في التمريض؟ حتى الحروق الصغيرة يمكن ان تكون مزعجة».

«لكنني رأيت العديد من الحروق».

اجابت سارة وقد وخزتها لهجة التأنيب في صوته، ساعمة لانفعالها ان يغلب حذرهما.

«كنت اعمل مساعدة لوالدي الذي كان طبيباً ايضاً».

افلت ايان ذراعها كارهها، ولم يبد عليه الاقتناع التام.
«حسناً! كما تشائين. واستقرت نظراته الثاقبة على وجهها: ومع هذا فسأعطيك مرهماً قد تحبين ان تجربيه عندما نذهب الى السيارة لكي تجلبي حبوب بيدي».

ثم اوماً ايماءة مقتضية لهيو، وسار عبر الباب المفتوح.

لما رجعت سارة بعد عشر دقائق، وجدت ان هيو قد غادر القاعة، ولم تجد له اثرأ في المكتبة عندما ذهبت لترى ما اذا كان بحاجة الى مساعدة عاجلة. وكان ايان قد اصرّ على ان تضع ضمادة مناسبة على ذراعها مما استغرق بعض الوقت. ولم تشأ سارة ان تعترف حتى لنفسها، بانها اختارت ان تتلصق مع ايان عن قصد أملة ان تتجنب هيو أية ملاحظات لاذعة قد يبدونها حول مسلكها.

اما ما تبقى من فترة ما بعد الظهر فقد قضته سارة في المطبخ متحملة مضايقات جيل التي راحت لتوها تشكو من الملل. وراحت جيل تتبادل الضحكات مع كاتي التي كانت تعرفها جيداً، ثم اخذت تكيد سارة بشأن ايان ماكيزي:

«رأيتكما متشاكبي اليدين في القاعة. ماذا كنتا تناقشان بهذه الجدية؟ ليس رومانيزم بيدي بالطبع؟ لقد ذكرت هيو بعدها ان ايان بدا وقد افتن بك».

«قلت لي بان الدكتور ماكيزي رجل مسن وطيب».

وضغطت سارة على الكلمتين الاخيرتين بوضوح.

قهقهت جيل دون ان تبدو عليها علامات التوبة:
«حسنًا، اليست هذه هي الحقيقة؟ كان عمي ديفيد يقول بأن ايان ولد عجوزاً- عجوزاً مستبداً انه لا يصف لي الا المحاضرات!». حاولت سارة من دون نجاح ان تخفي ابتسامتها وهي تنحني لتضع طبقاً في الفرن. ربما لم يكن الخطأ خطأ جيل لأنها تبدو اصغر من عمرها. انها فتاة مسلية بلا شك، ولكن مزاجها المتبدل متعب. من الافضل ألا تذكر امامها بان ايان طلب منها الذهاب الى حفلة رقص تقليدي. ثم ان سارة لم تبد قبولاً للفكرة بعد، بسبب واجباتها الكثيرة، ولكنها لم ترفض الدعوة ايضاً اذ وعدت ايان بان تبلغه قرارها في وقت ما خلال الايام المقبلة.
«متى تعود امك من اميركا؟». سألت سارة مغيرة الموضوع، وهي تفك شريط مريولها لتغير ثوبها. لم تستغ جيل تغيير الموضوع، وردت من دون حماس:
«لا اعرف متى تعود». وهزت كتفيها، ثم اضافت قائلة وهي تتبع خطوات سارة عبر القاعة.
«يوماً ما، على ما اعتقد». «لم تذهبي معها؟». «لا، كما هو واضح!». قالت لاوية شفتيها بشيء من الوقاحة.
«كان من الممكن ان افعل، لو انها انتظرت حتى شفائي من العملية». عضت سارة على شفتيها بشك. اذا كانت جيل ارادت السفر الى اميركا فليس من الممكن ان يكون حبها لهذا الرجل في لندن حقيقياً. الا اذا كانت قد نوت اصطحابه معها.
تابعت جيل، عندما لم تعلق سارة، بصوت مشاكس:
«يدخلني الشعور بان امي تعمّدت الذهاب لحظة ان علمت بانني لا استطيع الذهاب معها. وقد تذرعت باضطرابها الى الذهاب لاسباب عائلية. ماذا يعني هذا؟ لا ادري. وتم كل شيء تحت ستار من الكتمان. ولكنني واثقة ان هيو يعرف السبب. الا تستطيعين ان تتزلفي اليه لتعرفي الحقيقة؟». انزلف اليه لاكتشف سرّاً! وضحكت سارة في قرارة نفسها وهي تتوقف

قرب باب غرفتها. لا يستطيع احد ان يتزع شيئاً من فريزر سواء بالاقدام على استعمال الاساليب الملتوية او الاحجام عنها. وهي لا ترغب في المحاولة.
وخصوصاً لاشباع فضول جيل.
«سأترك هذا لك». وابتسمت ثم اغلقت باب غرفتها بهدوء.
بعد العشاء ذهبت سارة مع هيو الى المكتبة لانجاز بعض العمل اذ اراد انهاء بعض المراسلات. وقال لها بانها تستطيع طباعة الرسائل في الصباح على ان تنتهي منها قبل موعد بريد العصر.
بدأ هيو في بدلة الرمادية ضامر الجسم جذاباً. وجلست سارة. ثم اقبلا على العمل بصمت. واحست بنبرات صوته العميقة وهو يملئ الرسائل عليها تتلاعب باعصابها بطريقة مزعجة.
عندما انتهى، مدّ يده الى سيكارة واشعلها. وحبت سارة انفاسها وعيناها تتحولان عن وجهه المنحوت من صخر، باحثة عن شيء تحوّل اليه انتباهها.
ووقعت عيناها فجأة على خيالها في المرأة الطويلة قرب المدفأة فراحت تتفحص مظهرها بموضوعية. بدت البلوزة الفاتحة التي ارتدتها مع تنورة سوداء مخملية طويلة وكأنها قد زادتنا نحولاً. بينا لاح شعرها هذه الليلة اكثر اشقاراً وجمالاً.
وفجأة، ومن دون سبب، احست بالسعادة لانها لم تكن بالفتاة القبيحة.
عادت سارة بنظراتها الى الغرفة، واحمرت وجنتها اذ قابلت نظرات هيو الساخرة.
فوجئت سارة وارتبكت عندما قال لها هيو بغتة بلهجة مرحة:
«تبدلين جميلة هذه الليلة. كما ان العشاء الذي اعدته كان لذيذاً. لا اعرف كيف تستطيعين التدبير، ولكن حدسي بانك تعرفين الطبخ كان صحيحاً». «ولو لم يكن؟». «اننا على شيء من التهذيب، حتى في هذه المناطق المتوحشة».

رداً مبتسماً.

«هذا يثير دهشتي».

«ان بيدي تبدو مرتاحة. ولم تلجأ جيل للشكوى. يجب ان ان اعترف بأن كفاءتك احياناً تثير دهشتي».

قال مزيجاً سخريتها جانباً.

نظرت اليه سارة بتحد، واجبرت نفسها على عدم الاستسلام للمضعف.

«الكفاءة والمظهر الحسن غالباً ما يسيران جنباً الى جنب».

ردت وقد اغاضتها صراحتة الفجة.

«هناك انواع للجاذبية وحسن المظهر. ان الرجل بحاجة الى ان يحتفظ بهدوء افكاره».

لم تبذل سارة جهداً لكي تحتفظ ببرودة اعصابها. وحولت عينيها لكي تتجنب نظرة الاستخفاف من عينيها الداكنتين. لقد كان الخطأ خطأها. ما كان يجب ان تستثيره. كيف تأمل فتاة مثلها ان تخترق توازنه الفولاذي. وردت متجاهلة نبرة السخرية في صوته:

«ان الكفاءة ليست من احتكار السن. وتابعت بعناد: كما تعرف بدون شك».

«النساء يعرفن معظم الاجابات قبل ان يغادرن المهد».

اما الرجال فهم يتدثون عادة بداية سيئة. خذي ماكنزي مثلاً، لقد قهرته بنظرة واحدة من عينيك الزرقاوين على الرغم من انك فرضت عليه الانتظار».

القت سارة عليه نظرة سريعة وقد اعترأها الحجل:

«أسفة!».

تمتمت وهي تنظر الى يديها.

«كنت اتحدث الى جيل مما جعلني انسى الوقت».

كرهت سارة ان تشرح له بان جيل نسيت ان تبلغها رسالته حتى اللحظة الاخيرة. من الافضل ان تدعه يظن بها الامل بدلاً من ان تعرض علاقته المتوترة باخته لمزيد من الضغط. لقد اخطأت دون شك لأنها نسيت ان تعتذر لايان. ان منظره الفتي نسبياً اذهلها عن القيام بالواجب. ولكن هذا

التفسير سيبدو سخيفاً لو تفوهت به. ولهذا اكتفت بان تضيف بهدوء:

«شرح لي الدكتور ماكنزي بعض الاشياء المتعلقة بيدي عندما ذهبت معه الى السيارة لاحضار بعض الحبوب».

«تصرف سليم، يا آنسة ويتون!».

ثم قال بلهجة مصقولة وهو ينهض ببطء مبتسماً بلين:

«اسمحي لي!».

تدفق الدم في وجنتي سارة وهي تهب على قدميها متجنباً وجهه المرتاب وقالت بسرعة:

«اذا لم يكن هناك ما افعله، فاني احب ان اخرج لاتنسم الهواء. جيل ذهبت الى سريرها مبكرة. لقد سمعتها تصعد الدرج قبل قليل. ويدي لا تحتاج الى شيء».

قدار بسرعة ليطفيء النور. ثم خرجا من الغرفة.

«اذا لم يكن لديك ما يدعو الى الاعتراض، فسأني معك!».

اوقفتها نبرة صوته الثاقبة. كان القمر بدرأ. وهي دائماً تحب التجول وحدها. انها لا تريد ان يصاحبها فهي تود ان تريح اعصابها وتسترخي.

ونظرت سارة اليه نظرة شبه يائسة:

«افضل ان اذهب بمفردي، اذا لم يكن لديك مانع. ان الوقت ليس متأخراً».

تجمدت نظرة هيو الواثقة وقال:

«لدي مانع. ثم ان خروجي معك افضل لسلامتك، هذا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان انقاذك في وضع النهار كان صعباً ما فيه الكفاية.

وبالاضافة، انا ايضاً اشعر برغبة في المشي. وهناك بعض الامور التي اريد مناقشتك بشأنها. غداً سأسافر الى لندن، ولن يسمح لي الوقت بالتحدث اليك».

كيف تستطيع ان ترفض؟ وبدون اية معارضة اخرى وضعت على كتفيها شالاً بدلاً من ان ترتدي معطفاً لأنها كانت لا تنوي الابتعاد مسافة طويلة.

كانت النجوم تتألق بشدة في سماء خلعت من الغيوم. وهبت ريح خفيفة. وبدت القلعة كبناء اسطوري تحت ضوء الكواكب. بينما جاشت

الفضة في البحر الذي عكست امواجه ضوء القمر. واحست سارة بجمال المنظر وهي تتبع هيو الى الشاطئ بأسى.

سارت بسرعة وكأنها ارادت ان لا تطيل هذه اللحظات لشعورها الحاد بالرجل المحاذي لها. وسلكا الطريق الذي كان هيو قد دلها عليه في السابق ولكنها كانت تضطر بين الحين والآخر الى التمهّل لكي تلملم شعرها الذي راحت الريح تعث بخصلاته نائرة اياها فوق وجهها وعينيها. وهممت بغيط لأن شعرها وتنورتها الطويلة اخذتا تعيقان حركتها، وجرت لتلحق بهيو.

توقف هيو فجأة، وضحك بصوت منخفض. وقفزت نبضاتها عندما شعرت به يمسك بيدها ويشبك اصابعها حول اصابعه بتكاسل. . كانت اصابعه نحيلة وقوية واخذت تعث بتمالكها لنفسها. وبدأ شيء في اعماقها يتحرك ببطء. . . شيء جديد مثير للفرع. وسببت لمسته شعوراً لاذعاً في حنجرتها.

صرخت بومة ليلية فوق احدى الصخور العالية صرختها الموحشة. ويصعوبة سمعتها سارة. ولكنها احست في نغماتها تحذيراً. ووصلا الى ارض اقل وعورة فابتهلت سارة الأ يشعر هيو بارتعاشاتها المتشنجة لأنها ما ارادت ان يعرف المشاعر العاصفة التي ثارت في قلبها. لقد مدّ هيو يده اليها ليساعدها كأنه يساعد طفلة. ولهذا فان رد فعلها القوي ليس الا استجابة حسية بحته، حيلة من حيل الليل.

واستدارت سارة لتواجهه وقد احست بانها غير قادرة على متابعة هذا التحليل الصارم لمشاعرها. وتفوهت بأول جملة خطرت لها: «متى تعود الى لندن؟»

اعطى الصمت العميق لكلماتها رنة من الاستفهام اللاهث. فندمت سارة في الحال على سؤالها.

توقف هيو ومدّ يده ليزيح خصلة عنيدة من الشعر الملتفة حول حنجرتها، كاشفاً عن كمال انسياب خطوط وجهها من الجبين حتى العنق. «هل انت سعيدة لانني سأسافر يا سارة؟»

وكانت في لهجته نبرة غامضة. وتفحصتها عيناه الثابتان في الظلام. حاولت سارة ان تقلد اسلوبه الهادئ المجرب، وهي على يقين بانها

ليست نداءً لبراعته اللفظية. وتذكرت بانه قد هزا في احدى المرات من عدم قدرتها على رد الكيل بمثله. انها على استعداد للاعتراف بضعفها هذا ولكن ليس تماماً.

ولقد سبق أن ذكرت انه باستطاعتي ان آخذ اجازة اثناء غيابك. اجابت سارة متعمدة ان تعيد حديثاً جرى بينها في السابق. فرد هيو واسنانه البيضاء تلمع.

ولقد اخترت ان تذكريني بوعدتي، ولم يمض على تقلدك لمنصب مديرة منزلي الا وقت قصير. ولكن، هذا اذا لم تخني ذاكرتي، كان هناك قيد. «قيد؟»

ولقد وعدت بان تراقبي جيل.

ودون ان اختار.

تجاهل هيو ملاحظتها، وقال:

وان ازدياد المسؤوليات سيساعدك على النضج؛ ام انك لا ترغبين في هذا؟

ولست بحاجة الى النضج. فانا قد بلغت ٢١ عاماً. ألا تعرف؟ «سن متقدمة!»

وضحك الا ان ضحكته هذه المرة كانت خالية من التسلية. وثبت عينيه على وجهها المثالي في ضوء النجوم، وقال بجفاء. «ان العمر لا يقاس بالسنوات، بالضرورة.» «تعني الخبرة؟»

«تستطيعين قول ذلك. ولكن الخبرة هي شيء بعيد عن تناولك، كما التحيل.»

علق راداً لها الصاع صاعين. فارتعشت سارة، ولكنه تابع دون رحمة: «لا شك ان تعلقك بحماية والديك قد حال بينك وبين التجربة.» حدقت سارة في وجهه الاسمر الجذاب، وقد تناثر شعرها كالحرير فوق كتفها، ذائباً في نور القمر.

ولقد تحريت اموري، اذن.

لم تدع الحاجة الى ذلك يا فتاتي. قال مائلاً باتجاهها. فما على المرء الا ان يراقبك ليصل الى هذه النتيجة.

فأجابته سارة بصوت رفيع يغلي بالغضب:
«انك انسان مستحيل».

«وانت ايضا. دعينا نعلن هدنة بيننا».

عضت سارة على شفتها بشدة، محاولة السيطرة على نفسها كي لا تتشاجر معه بعنف. ولم تذكر انها شعرت بمثل هذا الغضب من قبل. وابتعدت عنه عدة خطوات وانحنت لتلقط حصاة كانت تحت قدمها، ورمتها بقوة بعيداً، الى حيث راحت الامواج تتكسر على الشاطئ. ثم اخذت نفساً عميقاً، وقالت:

«كيف تريدني ان اتصرف مع جيل اثناء غيابك؟ انها لم تذكر شيئاً عن صديقها. هل انت متأكد ان لها صديقاً؟».

فاجاب هيو بحدة وكأن تغيير الموضوع قد اثار استياءه.
«اؤكد لك بانه موجود. لقد تنازعنا انا وجيل بشأنه اثناء عودتنا من المطار».

نبعت سارة شعاعاً من نور القمر فوق الرمال. ولاح وجهها رقيقاً عكس الالق المرتعش.

«ان المعارضة غالباً ما تؤدي الى النتيجة العكسية».

«هل تريدني حقيقة ان نتكلم عن جيل؟».

كانت الرمال تتسرب من خلال اصابع قدميها وصندلها موحية لها بشعور وثير غريب. وراحت رائحة البحر تغزو حواسها، مفعمة الهواء بما يشبه السحر. وتحركت الرغبات. لم تكن الليلة مناسبة للتفكير المنطقي، ولكن سارة صممت على ان تستمر في المحاولة.

«لقد ظننت ان هذا هو السبب الذي دفعك لمرافقتي».

ارتفع حاجباه الداكنان بحركتهما المعهودة، مما اعطى وجهه في ضوء القمر تعبيراً متعجباً.

«ان ليلة كهذه لم تخلق للنقاش».

قال بنعومة ساحرة.

فتصلب جسم سارة. وبدت كحورية بحر على استعداد للهروب: عيناها مستديرتان. ورأسها مرفوع الى الورا فوق عنقها النحيل. وغلبها شعور غريب عمره كعمر الابد، فابتلعت ريقها وقالت:

«لا اظن أنني افهم ما تعنيه».

فلمعت عيناه، وتأملها بنظرة طويلة مقصودة:

«الا تظنين انه قد حان الوقت لتفهمي؟».

«ليس هناك ما يجبرني على الاصغاء لمثل هذه الكلمات».

قالت بضعف، وهي تطرق بعينها تحت وطأة نظراته الفاحصة المستعصية. فضحك ضحكة عميقة.

«لن امثل دور الرجل المتوحش البدائي، اذا كان هذا ما يقلقك».

ارتجفت سارة عندما مدّ يده مرة ثانية الى شعرها، لاويأ خصلة منه حول

اصابعه راحت تتألق في ضوء القمر. وتابع مكملأ حديثه بصوت مشدود:

«ولكنني لا املك الا ان اتساءل كيف ستصرفين لو فعلت. هل هذه

المالة من البراءة التي تحيط بك مجرد غلاف سطحي، يا ترى؟ عندما تختار

فتاة مثلك ان تدفن نفسها في جزيرة نائية فان السبب في العادة لا بد ان

يكون رجلاً».

«أتعني أنك لا تعرف السبب وراء قدومي هنا؟».

«لقد ظننت انه من المثير ان احاول معرفته، خصوصاً بعد ان رأيت

الطريقة التي نظرت بها الى ايان ماكنزي».

اجاب بسخرية لا تحتمل.

«كيف تجرؤ؟».

واشتعل غضب سارة ليتلاشى بالسرعة نفسها. ومسحت على جبينها بيدها كالنومة، وقالت:

«ماذا لو قلت لك ان السبب هو احساسني بالنعاسة».

«وفري عليّ التفاصيل البائسة. ان كنتي لم تخلق لتجفيف الدموع».

«لا يمكن لامرء صحيح العقل ان يظن بك مثل هذا الظن».

اجابت سارة بعنف، رادة كلماته الى نحرها، وعيناها تفيضان بدموع لم

تذرفها نتجت عن الجرح العميق الذي سببه لها. وندمت على النزوة التي

كادت ان تدفع بها الى الافضاء اليه بالحقيقة عن والديها. وحركت رأسها

بسرعة لكي تخفي وجهها المبلل بالدموع تحت خصلات شعرها الثقيل.

ولكن هيو لاحظ لمعان الدموع في عينيها.

«وفري عليّ هذه الدموع. أعدك بان أطلق العنان لغضبي كالبركان اذا

ما استسلمت للبكاء. او لعله من الافضل ان اخلق لك سبباً يدعوك للبكاء!.

شعرت سارة بجسمها يطفو في الهواء، تتدافعه صعوداً ونزولاً زويدة عواطفها النائرة.

صدمت سارة عندما عانقها هيو لأنها كانت على جهل بالمشاعر التي كانت تجيش في نفسه باستثناء غضبه. واحست بقربه منها يحجب قدرتها على التفكير الواضح.

وفجأة، ومن دون انذار، انتزع ذراعيها من حول رقبته وازاحها بحزم بعيداً عنه، فترنحت سارة تحت صدمة هذا الرفض غير المتوقع.

وتناهى اليها صوته خشناً، قاسياً:

«لم تنصرفي وكأن قلة الخبرة التي تدعينها قد شكلت لك عائقاً».

احست بوقع كلماته عليها كالماء البارد. فعاد اليها وعيها. انه لمن الجنون ان تدعه يعاملها بمثل هذه الطريقة.

«ما الذي جعلك تتصرف هكذا؟».

«الله وحده يعلم... الاغراء... الاستفزاز».

وسرت نظراته فوق جسمها التحيل تومض بلمعة استحسان مزعجة.

«ما كان يجب ان آتي معك الى الشاطئ».

«لم اشجعك».

وغطت كلماتها حاجتها اليائسة لبعث ثقتها في نفسها من جديد.

استعاد هيو تمالكه لنفسه وبدا وجهه كالقناع الجامد وقال:

«هناك عدة طرق لتشجيع الرجال، يا سارة. وانت تفعلين ذلك دائماً لا شعورياً».

«هذه كلمات مريضة. كيف تستطيع التفوه بها؟».

«هذه هي الحقيقة يا سارة، سواء أكننت عالمة أم جاهلة بها. انت تعجذين الرجال كما يجذب اللهب الفراش».

حدقت فيه سارة مرتاعة. هل يظن أنها معتادة على مثل هذه التصرفات؟

«اظن انك قد ارتكبت خطأ».

«لا. اجاب بقوة وبصوت بدأ الغضب يذوب منه. ولكن الوقت متأخر

وانت تبدين متعبة. ثم اننا لا نريد ان نبدأ شيئاً لا نستطيع ان ننبه. يحسن بنا ان نعود. وكما قلت سابقاً ما كان يجب ان آتي معك».

«ولكنك قلت بان هنالك بعض الامور التي تريد ان تناقشني بشأنها».

وبصعوبة استطاعت سارة ان تدرك فحوى كلماتها لأن ذهنها كان ما يزال يعاني من اثر الصدمة.

«ليس هنالك من لا يستطيع الانتظار».

لفت سارة الشال حول جسمها، وحدقت في البحر امامها. كان القمر قد اختفى وراء غمامة مما جعلها غير قادرة على تبيين موقع خطواتها الآ

بصعوبة. وتعثرت فجأة ولكن يده امتدت اليها في الحال لتسندها، إلا ان لمسته الآن كانت جافة خالية من المشاعر، وراح يساعدها على صعود الدرب الضيق الغارق في الظلال.

واحست سارة بانه قد ندم على مغاللتها. وبذلت سارة محاولة شبه مكشوفة لتجمع شتات نفسها. وسارت دون ان تعلق على كلمات فريزر

الاخيرة. وتعمهلت خطوات هيو بجانبها، وبدا وجهه الداكن عصياً على القراءة. ثم تناهت اليها كلماته المفعمة بالسخرية:

«لا ادعي لأن تغلقي الابواب في وجهي لأن الصدف شاءت ان اكون رئيسك. أنت دائماً تصرين على الاشارة الى وضعك ووظيفتك حتى اصبحت فكرة لا تتزحزح في رأسك الرجعي الجميل هذا. انه من المعروف

ان كثيراً من الفتيات يتتهين بالزواج من رؤسائهن».

سرت القشعريرة في جسم سارة. انه يحاول ان يجعل الموقف يبدو مسلياً. لقد كان من الممكن ان تغفر له عدم اهتمامه، ولكنها لا تستطيع ان تغفر له هذه السخرية اللاذعة. وابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت:

«لم اعمل في خدمة العديد من الرؤساء، يا سيد فريزر».

«من الان فصاعداً، يا صغيرتي، نائرة اللهب، نادني باسمي: هيو».

ارتجفت سارة. من الواضح ان اسلوبها المتكلف قد ضايقه. ولكنها تفضل ان تواجه غضبه على ان تدعه يكتشف الطريقة المؤلمة التي استجابت

بها له. حمداً لله على قرب موعد سفره. اثناء غيابه ستحاول ان تتعلم كيف تواجه هذه الكتلة من العواطف الجياشة التي تعتمل في نفسها. حتى اذا ما

عاد استطاعت ان تواجهه بنوع من الموضوعية، ولو لم تشعر بها.

اطلت القلعة مهيمنة . وصاح طائر بين الاشجار . وارتعدت سارة اذ
حادت نظراتها عن وجه هيو الساخر لترحل عبر الريح والسماء فوقها .
واحست بانوثتها كما لم تحس بها من قبل . ولكنها صممت على ألا تدعه
يخمن مشاعرها .

اخذت سارة نفساً عميقاً . واشاحت بوجهها لتخفي قطرات الدموع
التي لسعت عينيها .

«من الأفضل ان اذهب الآن . لقد وعدت بيدي بان اعد لها شراباً
ساخناً . ستسأل الى اين ذهبت اذا لم افعل» .

واستدارت ثم عبرت الباب الامامي الضخم بخطوات سريعة .

٥- أرجوحة الحزن

غادر هيو القلعة مبكراً في صباح اليوم التالي ليذهب الى لندن .
وكانت سارة قد نهضت من فراشها متأخرة بعد ليلة غير مريحة مما اثار
غضبها . وهرعت الى الاسفل لتجد ان هيو قد خرج بعد ان تناول فطوره
بمفرده . ونظرت سارة الى كرسيه الفارغ بمزيج من الارتياح واليأس .
«كان مستعجلاً جداً يا آنسة سارة . قالت كاتي من وراء ظهرها . سألتني
ألا أوقفك لأنه قدّر بأن تكوني متعبة . ولم ينتظر حتى اقلي له بعض البيض .
لقد اخذت بعض الشاي الى بيدي قبل قليل . وهي نصر على مغادرة
الفراش واستئناف العمل» .
«آه ، لا» .

وأسرفت سارة تصعد درجات السلم الى غرفة بيدي باستياء شديد
لكي توبخها . ولما استطاعت اخيراً ان تقنعها بالبقاء في السرير ، وجدت في
انتظارها مجموعة من المشاكل مما اضطرها لأن توفر لها اهتمامها الكامل ، ولم
تجد وقتاً لتناول اكثر من فنجان قهوة وقطعة خبز محمص .
«الآنسة جيل تشعر بالتعب . قالت كاتي وهي تقوم باعداد صينية فطور
باهتمام . ولن تغادر غرفتها قبل موعد الغداء» .

لم تنزعج سارة ، لأن هذا الترتيب من شأنه ان يتيح لها طبع رسائل هيو
والحصول على توقيعه قبل ذهابه . وعندما رآته اخيراً لم يبد عليه القلق بشأن
جيل .

«هذا شيء متوقع ، كما اعتقد . لا شك أنّ الرحلة قد اتعبتها وستحتاج
الى الراحة لفترة قبل ان تستعيد قواها . وهذا يعني انها لن تسبب لك كثيراً

من المضايقات قبل عودتي».

بدا واضحاً أنه ما كان ينوي ان يبدي عواطف الشفقة! ودون ان يضيّع مزيداً من الوقت وقّع الاوراق ونظر بسرعة الى بريد الصباح.
«سأغادر بعد قليل».

قال وهو يرمق مكتبه بسرعة، ثم حطت عيناه على وجه سارة المصفر:
«اتوقع ان تديري الامور بكفاءة. ولكن اذا ما حدث اي شيء واحتجت الي فيمكنك الاتصال بي في مكنتي. هذا هو الرقم. سأترك لك ايضاً رقم الشقة لكي لا تجدي صعوبة بالاتصال بي عند الضرورة».
نظرت سارة بكآبة الى رأسه الداكن وهو ينحني ليكتب رقم الهاتف. وكان قد ارتدى بدلة انيقة فوق قميص مقلم فاتح مما ابرز سمرة ورجلته. استقام هيو بقامته واستعرضتها نظراته ببطء حتى استقر على الضماد الطبي فوق ذراعها. فافترت شفثاه عن ابتسامة خفيفة ساخرة.
«لا شك ان الدكتور ماكنتزي سيعتني بك. لا تسمحني لنفسك بالوقوع في شباكه تماماً، يا سارة».

ازاحت سارة رأسها بسرعة متجاهلة كلماته. وتصنعت الاستخفاف. ولكن ملاحظته آلتها، فاجابت:
«قد تعود من لندن قبل ان يأتي لزيارتنا ثانية».

ورفعت رأسها فوجدت عينيه مصويتين عليها فتسمرت تحت وطأة نظراتها النفاذة للحظة. ثم اجبرت ذهنها على التحول للاهتمام ببعض التفاصيل التي بقي عليها انهما، رافضة ان تدع ذهنها يعود الى ليلة البارحة. وعلى الرغم من هذا شعرت بحمرة الخجل تصبغ خديها، فأسرعت لتجمع حزم الرسائل واخذت ترتبها.

«اشك في هذا. ان الرجال امثال ماكنتزي لا يقعون تحت تأثير النساء بسهولة، ولكن عندما يفعلون لا تستطيع حتى الخيول البرية ان تصدهم».
هل حملت ملاحظته نوعاً من التحذير الخفي؟ لا شك انه قصد ان يلفت نظرها الى حقيقة نوايا ماكنتزي، هذا اذا كانت لديه نوايا! ولكنه ليس بالقيم عليها. ان ايان على الاقل قد تصرف بمتهى اللياقة، اما هيو فان سلوكه يتأرجح بين اللطف والخشونة من لحظة الى اخرى. وردت سارة متسرفة تحت وطأة السخرية في عينيه:

«لقد وقعت انت نفسك تحت تأثير الأنسة اسكويث في الامسية الفائتة».

انكمش هيو في الحال. واحست بافكاره تنفصل عن ذهنها، وكأنه انسحب بجسمه من الغرفة. ولبل العرق كفيها اذ تجسست لها فجأة جسامته حماقتها. ولكنه عندما تكلم جاء صوته ثابتاً، على الرغم من ان السخرية ما تزال عالقة به.

«لعله يمكننا تشخيص مزاجنا هكذا: مواجهة الصباح بعد ليلة البارحة». وهز كفيه باستخفاف. وكانت هذه هي الملاحظة الوحيدة التي ابداهما بشأن نزعتها على شاطئ البحر. فغمرها الخجل الشديد.
توقف هيو للحظة ليتأمل اللون الوردي الذي تألق في خديها وقد رفعت رأسها المتلألئ لتحدق في عينيه. وكان وجهه قريباً منها فأشاحت بوجهها لتجنبه.
«أسفة!».

اعتذرت بلهجة يائسة، محاولة ان تخفي ضربات قلبها وهي لا تدري ماذا تقول، فالتصمت عيناه بسخرية لا قرار لها. ومد اصبعه الى خديها المحمر ناقرأ اياه بخفة. ثم ادار ظهره فجأة قائلاً من وراء كتفه وهو يتجه نحو الباب:
«سأراك عندما اعود».

لم تستطع سارة ان تستقر في البيت بعد الغداء. ولهذا قررت ان تذهب الى القرية لتضع الرسائل في البريد. وسألته بيدي ان تحضر لها بعض الخوايج كما طلبت منها ان تذهب لزيارة اختها التي كانت على موعد معها هذا العصر. ولما لم يكن بالامكان ان تخرج بيدي من القلعة فقد وعدتها سارة بان تسأل فيها اذا كانت اختها تحب ان تأتي لزيارتها لمدة ساعة او ساعتين.

سعدت سارة بهذه الفرصة لمغادرة القلعة التي بدت موحشة بعد ذهاب هيو.

لم تهبط جبل الى الطابق الاسفل الا بعد رحيل هيو. وامضت بقية الصباح في التجول من غرفة الى غرفة من دون هدف. واقترحت سارة عليها ان تأتي معها الى سالن، ولكن جبل لدشتها رفضت.

«لا أرغب في ان افعل أي شيء».

قالت بصراحة وهي تتأهب مكررة فمها الوردى الصغير.
«سأصاب بالملل دون شك. انا واثقة انك ستمتعين بنزهتك اكثر من
دوني».

اوشكت سارة ان ترد عليها قائلة بان خروجها ليس للمتعة، وان
الانسان يحتاج احياناً الى تنفس بعض الهواء النقي، ولكنها احست بانه من
الحكمة ألا تقول شيئاً. من الواضح، لسبب لا يعرفه احد غيرها، ان جيل
تعاني من سوء المزاج. وعندما لمحت لها سارة بان مزاجها سيتحسن عندما
تستعيد صحتها ردت قائلة:
«اني لست مقعدة».

وكانت لهجتها غاضبة اذا اغاظتها لهجة التفاضل في كلمات سارة.
ابتسمت سارة مكرهة. من السهل اثاره مشاعر جيل العدائية. ولكنها
اذا ما ارادت ان تعيش معها تحت سقف واحد، فانه من الافضل ان تكون
معها على وفاق. بعد قليل تركتها سارة تستمع الى بعض الاسطوانات،
وهرعت الى السيارة.

اقتربت سارة من الجاغوار باحتراس. لقد سمح لها هيو باستعمالها
شريطة ان تلتزم بجانب الخلف.
«كل ما نحتاجينه هو استعمال عقلك».

اجابها بصبر نافذ عندما احتجت بانها لم تجربها بعد.
ركبت سارة السيارة وتمنت مبتهلة ان يكون هيو على حق وهي ترجع
بالسيارة الكبيرة الى الخلف لتخرجها من المراب. وتحملت التعليقات
اللاذعة التي لا بد ان يبديها هيو فيها لو سببت حادثاً للسيارة، او الحقت بها
الاذى. هذا على الرغم من تهاونه معها باستعمال السيارة! يحتمل ان تكون
تعليقاته في مثل هذه الحالة اسوأ من التعليقات التي كان بوسعه ان يتقوّه بها
عندما ابدت ملاحظتها بشأن بيت اسكويث. لا شك ان التمالك
والسيطرة على النفس اللذين بذلها. . . هذا الصباح يستحقان الاعجاب
اذا ما اخذ المرء بعين الاعتبار للذاعة لسانه حتى في الاحوال الطبيعية.
في سالن. ألقت سارة الرسائل في صندوق البريد. واشترت الحاجات
التي طلبتها منها بيدي. وبعد ان وضعت المشتريات في صندوق السيارة

قررت ان تذهب للبحث عن شقيقة بيدي. لم تكن ارشادات بيدي
واضحة. كانت قد طلبت منها ان تبحث عن بيت صغير في الجانب الآخر
من البلدة. وقالت:

«اي شخص يستطيع ان يدلك عليه».

ولكن سارة لم تجد اي شخص حولها لتوجه اليه السؤال. وانبتت نفسها
لأنها لم تسأل عن البيت في مكتب البريد. وكانت بيدي قد اعطتها اسم
البيت ايضاً. ولما لم تكن على عجلة من امرها، فقد قررت ان تذهب
للاستكشاف. وكان العصر دافئاً ولطيفاً. ولهذا فان البحث عن البيت
سيعطىها فرصة للتعرف على ما حولها. ولم تشك في انها ستعثر عليه قريباً.
وفجأة عند منعطف الطريق، شاهدت كاتي تتحدث الى رجل ملتج. كانا
يقفان جنباً الى جنب والاشجار تكاد تحجبهما، مستغرقين في الكلام.
توقفت سارة بدهشة. وشخصت بناظرها. يبدو انه مكتوب عليها ان
تلتقي به دائماً؛ آخر مرة في توبرمري، والآن هنا. ولكن عامل المفاجأة هذه
المرّة هو ان تراه يتحدث الى كاتي. لا شك انه واحد من سكان الجزيرة. او
قد يكون صديق كاتي، على الرغم من انها ذكرت بان صديقها لا يعيش في
هذه الجزيرة. او لعله ليس إلا غابر سبيل توقف ليسأل كاتي عن الطريق.
هناك تفسيرات عديدة.

واستدارت سارة وقد فقدت اهتمامها لتتابع بحثها عن البيت. واخيراً
عثرت عليه في الجانب الآخر من القرية. وبعد ان عرفت بنفسها انتظرت
حتى ارتدت اخت بيدي، الأنسة بلاك، افضل معطف وقبعة لديها.
«لا يناسب القلعة إلا الافضل».

قالت الأنسة بلاك بغموض وهي تستقر في المقعد بجانب سارة.
«هذا ما قاله السيد فريزر المعجوز امامي عندما جاء ليستقر هنا، وقد
ردّد هذه الكلمات بذاتها فيما بعد مشيراً الى الجزيرة. انني لاتساءل فيما اذا
كان السيد فريزر الشاب يحمل الرأي نفسه».

ادركت سارة بان الأنسة بلاك عنت هيو. وان فضولها يدفعها
كالآخرين، الى محاولة معرفة فيما اذا كان ينوي ان يتخذ لوخ غويل مقراً
له. ولما ردت سارة قائلة بانها لا تعرف بدت خيبة الامل واضحة على
قسماتها التي تشبه قسمات الطيور. وكتمت سارة رغبتها في ان تضيف

متنبهة بانها هي ايضاً تتمنى لو تسمع منه قراراً بهذا الشأن . من المحتمل ان اجبار كل هؤلاء الناس على العيش في حالة توقع يعطي هيو شعوراً بالاهمية ، وهو شعور لا تستطيع ان تشاركه اياه ، ولكي تتجنب افكارها المزعجة راحت سارة تثرثر متحدثة عن بيدي . وسرها انها قد نجحت في تحويل انتباه الأنسة بلاك .

«أمل ان تحسن بيدي خلال يومين او ثلاثة» .
«لقد قلت لها مراراً بان الوقت قد حان لكي تتقاعد . لا لأنها قد عجزت كثيراً ، ولكن لأن آلامها ستفاقم اذا لم تعتن بنفسها» .
كان من الصعب ايقاف اخت بيدي عن الكلام بعد الشروع فيه . ولهذا تركتها سارة تتكلم ، معيرة اياها انتباهاً بسيطاً . لأن افكارها اصررت على العودة الى كاتي والرجل الغريب .
«ان كاتي هي ابنة اخيك ، اليس كذلك؟» .
سالت سارة عندما ابدت الأنسة بلاك ، ويا لحسن الحظ ، ملاحظة تتعلق بكاتي .

ولم تعرف سارة لماذا سالت هذا السؤال .
«ليست ابنة اخي بالضبط . شرحت الأنسة بلاك . بل قرية بعيدة نسبياً . وكان من حسن حظها ان تعثر على وظيفة في القلعة عندما رفضت ان تترك الجزيرة» .
«لماذا؟ اعني ان الحياة الهادئة في القلعة لا تناسب فتاة يافعة مثل كاتي» .
«نعم . من بعض النواحي» .
تابعت الأنسة بلاك من دون ان يبدو عليها انها وجدت شيئاً غير عادي في سؤال سارة .

«قد يتبرّم معظم الناس من مثل هذا الهدوء . ان قلة الوظائف هي المشكلة الحقيقية . ولكن لكي تكوني على علم اكثر بالموضوع ، سأفضي لك بان والدة كاتي ماتت عندما كانت طفلة . ولهذا تولينا انا وبيدي امر رعايتها . وقد امضت كاتي جزءاً كبيراً من طفولتها وصباها في القلعة . ولعبت مراراً مع الأنسة جيل التي كانت تأتي لقضاء عطلاتها هنا . ولهذا يمكن القول بانها شبّت معاً رغم اختلاف ظروفهما - تعرفين ما اعني؟ والى الآن ما زالتا صديقتين حميمتين . وكان هذا احد الاسباب الذي دفع كاتي

لأن تذهب للعمل في القلعة بعد ان تركت المدرسة» .
بدأت الامور تتضح لسارة بعد هذا الشرح الطويل . وقالت بابتسامة :
«لقد وصلت جبل البارحة . اتوقع ان تكون كاتي سعيدة بلقائنا» .
وأضافت بحذر : اعتقد انني لمحت كاتي بينما كنت ابحث عن بيتك ، في سالن ، هذا اذا لم اكن على خطأ» .
«لا ، لا اعتقد انك اخطأت» .

وهزت المرأة الصغيرة رأسها الرمادي ، وعلا العيوس وجهها الذي لوحته شمس البحر .
«ولكن أمل ألا تظني بانها تختلس الوقت من وراء ظهرك . لقد جاءت لتراني لبضع لحظات . وقالت بانها قد اتت الى سالن بغرض إبلاغ رسالة من الأنسة جيل الى صديق . لم تذكر اسم الشخص المقصود . ولكنها ستعود الى القلعة في الحال بعد تبليغ الرسالة . هذا ما قالت» .
اظلمت السماء بغتة . واخذت قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة فسارعت سارة لادارة المجفف لمسح الزجاج امامها .
«أمل ألا تبتل تحت هذا المطر» .
قالت سارة مبتسمة باستياء وهي تضغط على مكبس البتزين .
«هذا ليس الآ وابلأ من المطر على ما اعتقد . وكاتي لا يزعجها المطر . فالامطار تهطل بغزارة هنا» .
بدا على الأنسة بلاك انها وجدت في تعليق سارة العابر باعثاً على الاطمئنان .

واسترخت في مقعدها مصعدة تنهيدة ارتياح .
القت سارة عليها نظرة سريعة . ثم راح ذهنها يحتر الحقائق التي كشفتها لها هذه المحاورة . بدا من الغريب ان ترسل جيل كاتي الى سالن لتحمل رسالة منها بعدما ذكرته عن شعورها بالتعب وعدم رغبتها في ازعاج نفسها بشيء . ثم انه من المؤكد ان معظم معارف جيل في الجزيرة يملكون هواتف في بيوتهم . ولهذا فان كل الملابس تشير الى مؤامرة تحاك في الخفاء . ولكن من المحتمل ان كاتي قد اختلقت هذا المبرر لكي تخرج من القلعة ، مستغلة مرض بيدي . وعبست سارة ضائقة بالقلق الذي غمر نفسها . وفجأة لمعت فكرة مفزعة في ذهنها . ان الرجل الغريب الملتحي تكلم بلهجة تدل على انه

قادم من الجنوب. لا، لا يمكنها ان تصدق هذا. ولكن هل يمكن ان يكون هذا الرجل هو الفنان الذي تحبه جيل. هذا الاحتمال هزيل دون شك. فالرجل غادر القارب معها عندما وصلا قبل ثلاثة اسابيع. ولو انه كان صديق جيل لانتظر وصولها قبل ان يسافر. يجب ألا تدع خيالها وشعورها بالمسؤولية يسيطران على افكارها بهذا الشكل.

سأقت سارة السيارة الى ساحة القلعة. وبعد ان ساعدت الأنسة بلاك على مغادرة السيارة اخذتها لثري بيدي. ثم تركتها معاً واعدة بان تعود بعد ان تعد لها بعض الشاي. واخبرتها بيدي قبل ان تترك الغرفة بان الطبيب جاء لزيارتها، وانه وعد ان يمر ثانية في الصباح.

«لا افهم ما حدث! ثلاث زيارات خلال ثلاثة ايام! انني اخشى حتى وضع قدمي على الارض، على الرغم من ان آلامي قد زالت». وفكرت سارة وهي تهبط الدرج: لقد كان هيو على حق اذن بشأن ايان. ام هل كان؟ طبعاً، هي لا تعرف شيئاً عن عادات الاطباء في هذه المنطقة من العالم. ولكن ليس هنالك سبب واضح يدعو لتفسير زيارات ايان بغير الاخلاص للواجب.

فوجئت سارة بجيل في المطبخ، التي استدارت بتلهف عندما سمعت وقع اقدامها. ولكن خيبة الامل حلت على التطلع عندما عرفت شخصية القادم. من الواضح انها كانت تنتظر شخصاً آخر. وحيث سارة باقتضاب واشاحت بوجهها عابسة، بينما سارعت سارة لاعداد بعض الشاي. «سأخذ الشاي الى غرفة بيدي. شرحت سارة بحبيبة على التساؤل الصامت في عيني جيل. ان الوقت ما يزال مبكراً ولهذا فستعد لنا كاتي الشاي عندما تعود من سالن».

صاغت سارة جملتها باحتراس. وراحت تراقب وقع كلماتها على جيل بانتباه. لحظة صمت! ثم لاحظت سارة بارقاً من الحذر يزحف الى عيني جيل على الرغم من انها لم تفصح عن اي شعور بالفزع.

ضحكت جيل فجأة، مشيخة بوجهها عن وجه سارة المرهف، وذهبت لتجلس قرب الموقد على كرسي بيدي. واستندت ظهرها متكئة الى الورا، شابكة ساقيها النحيلتين. واحست سارة بانها تراقبها من خلال جفنيها شبه المطبقين، مما اثار الغيظ في نفسها.

«طبعاً. قالت جيل وهي تطلق ضحكة رقيقة. لو عرفت بان كاتي كانت تنوي الخروج لسألتك ان توصليها بالسيارة الى سالن عندما عرضت علي مرافقتك الى هناك».

من الواضح ان هنالك بعض الاسباب التي تدفع احد هؤلاء الاشخاص الى عدم التصريح بالحقيقة. بينما راحت تفكر فيها قالت جيل. اذا كانت جيل صادقة فان كاتي قد كذبت من دون شك. ولكن لماذا تتظاهر كاتي بانها قد ذهبت الى سالن من اجل ان تحمل رسالة من جيل؟ لم يكن هناك ما يدعوها لاختلاق مثل هذا العذر لانها لا تعمل عادة في الفترة التي تتلو الغداء وتسبق تناول الشاي.

«بما ان كاتي تقطن في سالن. تمتعت سارة وهي تراقب وجه جيل الاملس. فاني اعتقد بانها ذهبت الى البلدة لتزور خالتها. لقد اصطحبت الأنسة بلاك من سالن لتزور بيدي».

«الأنسة بلاك؟»
لو ان سارة قصدت لا شعورياً أن تفرع جيل لقد نجحت. لأن الاخيرة انتصبت في مقعدها فجأة، وجابهتها بوجه خال من التعبير. ثم هتفت بغضب:

«هل تعنين هذه المرأة العجوز الثرثرة التي لا تنقطع عن الكلام؟ إن المرأة لا يستطيع ان يصدق نصف ما تقوله».

«من فضلك...!»
ورفعت سارة يدها بحركة دفاع عن النفس، وراحت تحلق بعينين غمرتها الدهشة والفزع بالفتاة الجالسة على الكرسي. ان السيدة بلاك ليست امرأة ثرثرة كما وصفتها جيل. ولكن من الواضح ان قدومها مع سارة هذا العصر قد سبب ازعاجاً كبيراً للفتاة.

قررت سارة، مدفوعة بالرغبة في حماية نفسها، الا تسمح للفتي ان يسيطر عليها. وكانت على وشك اتمام جملتها بعد صرخة التعجب التي اطلقتها عندما رن جرس الهاتف. فقفزت جيل التي لم يكن من عاداتها ان تهب للمساعدة للاجابة على الهاتف. اما سارة فقد راحت تدهن بعض شرائع الخبز بالزبدة.

عادت جيل بعد دقائق وقالت:

«كانت المكالمة من بيت اسكويت».
وجلس على الكرسي. وبدأ عليها انها قد استعادت تمالكها لنفسها.
ثم تابعت بابتسامة راضية:
«كانت غاضبة جداً لأن هيو سافر دون ان يخبرها. وسألني فيما اذا كان سيرجع قبل موعد الحفلة الراقصة في الاسبوع المقبل».
«حفلة راقصة؟».

سألت سارة محاولة ان تكتم موجة الفرح التي غمرتها. فقد ظنت ان هيو وبيت ذهبا معاً الى لندن.
«آه! حفلة راقصة تقليدية. ان والدتي بيت تقيم واحدة في حزيران من كل عام. واحياناً تأتي خصوصاً لحضورها، من دون هيو بالطبع، لانه غالباً ما يكون في مكان ما في الخارج. لقد اخبرت بيت بأنني لا اظن انه سيستطيع حضور الحفلة هذا العام ايضاً، مما جعلها تضع سماعة الهاتف بسرعة».
«ولكن...».

وحلقت سارة في وجه جيل عابسة وقد لاحظت التعبير الشقي المرتسم عليه.
«ان هيو يتوقع ان يكون هنا بعد يوم او اثنين. لقد ذكر لي ذلك بنفسه».
«هل قال ذلك؟ ردت جيل بصوت ناعم ذي معان. ان الدقة في تحديد المواعيد والاماكن ليست من طبع هيو».
«لا تكوني حمقاء».

اجابت سارة بثبات. ولكنها احست بوجهها يشتعل خجلاً بسبب التلميح الذي تضمنته كلمات جيل. وختمت كلماتها قائلة بضعف:
«اظن انك كنت تمزحين مع الانسة اسكويت».
«هذا كلام فارغ. وتجعد وجه جيل بتكشيرة غير لطيفة. انا لا استلطف الانسة اسكويت، واعرف انها لا تحبني. ولهذا فلا داعي لان تقفي بيننا مسلحة بسلاح الدبلوماسية! لم اجد ما يدعوني الى تهدئة قلقها. من الصعب ان يثق المرء بهيو. فهو يغيب احياناً لمدة عدة اسابيع اذا راق له ذلك».
«هل من عادة سكان الجزيرة ان يقيموا عدة حفلات من هذا النوع؟».
«طوال فصل الشتاء. اجابت جيل باقتضاب. في اغلب الاحيان لا

يتعدى الاحتفال تبادل الاحاديث والاستماع الى بعض الاغاني، او تناول الشاي والقهوة مع السندويشات والكعك الساخن. اما والدتي بيت فانها تقيم حفلة كبيرة كل سنة تخصص ريعها للجمعيات الخيرية. وتصر على ان يكون كل شيء في كامل الزينة والالاهة. ربما يصطحبك هيو معه اذا حضر في الوقت المناسب».

تذكرت سارة فجأة دعوة ايان ماكنزي، فقالت باندفاع دون ان تفكر:
«في الحقيقة دعاني الدكتور ماكنزي لحضور الحفلة بصحبته».
«حسناً... هزت جيل كتفها بدون اكتراث، وبدأ على وجهها الصغير عدم الاهتمام. يبدو انك ستحضرين الحفلة بطريقة او باخرى. في الحقيقة انا اكره فكرة زواج بيت من هيو. وازدادت دون ان تأخذ نفساً: الا ان هيو يجب ان يتزوج يوماً ما. لعل زواجه سيحسن طباعه ويجعل منه انساناً».
غادرت سارة المطبخ بسرعة خوفاً من ان تستطرد جيل في الكلام. وتلكأت في غرفة بيدي غير راغبة في العودة الى المطبخ كي لا تسمع المزيد عن هيو وبيت، محاولة ان تقنع نفسها بان السبب الوحيد هو كرهها للاصغاء الى الشائعات. ولكن صورة هيو طاردها في كل مكان. وكلما التفتت رأت وجهه ينحني فوق وجهها والقمر يضيء شعره الكالحي.
حاولت سارة ان تطرد خيال هيو من ذهنها. فعرضت على الانسة بلاك ان توصلها الى سالن. وعادت قبل موعد العشاء بدقائق، فسارعت لتحضير بعض الحساء والسلطة.
واحست بالارتياح عندما وجدت ان جيل كانت في غرفتها. اذا كانت جيل وكاتي تتأمران معاً، فانها لا تريد ان تعرف شيئاً عن الموضوع. ولكن كاتي هدأت من شكوكها عندما جاءت الى المطبخ، وقالت لها بأنها ذهبت الى سالن لترى صديقة وعدت بان تأتي وتطبخ حتى تشفى بيدي من مرضها.

«اذا لم يكن لديك مانع. فان جين ستقوم بالمهمة خير قيام».
لم يكن هنالك داع لقلقها اذن! وتابعت كاتي قائلة بان السيد فريزر هو الذي اقترح هذا الحل قبل ذهابه. ولم تعرف سارة أسرتها الفكرة ام اغاظتها؟ لم يكن بالامكان ان يستشيرها قبل ان يسارع الى اتخاذ القرارات؟ فلو انها عرفت مسبقاً سبب ذهاب كاتي الى سالن لما عانت من

كل هذا القلق غير الضروري.

في صباح اليوم التالي عندما وصلتها رسالة من جين مع بريد الصباح، ازدادت سارة انشراحاً. وقالت جين بانها مشغولة في المكتب. ولكنها ستأخذ اجازة قصيرة عما قريب. وقد فكرت في ان تأتي لقضائها في جزيرة «مل» وسألت سارة ان تخبرها عن وقت يناسبها لكي تستطيع قضاء بعض الايام معاً، ثم العودة الى لندن معاً ايضاً اذا ما كانت سارة قد انتهت من العمل في لوخ غويل.

انتهت من العمل في لوخ غويل؟ وشعرت سارة على الرغم من سرورها برسالة جين بأن الصباح قد فقد اشراقه.

قضت سارة بقية الصباح في انجاز عملها، ولم ترجلي إلا لماماً. وكانت على وشك ان تذهب للبحث عنها لكي تتناول الغداء معاً عندما وصل ايان ماكنتزي ليزور بيدي كما ادعى. وقضى في القلعة ساعة امضى نصفها في التحدث الى سارة وحاول ان يقنعها للمرة الثانية بالذهاب معه الى الحفلة الراقصة، ولكنها وجدت نفسها كالسابق، غير قادرة على اعطائه وعداً قاطعاً، اذ انها لم تستطع ان تتخلص من فكرة ان بيت اسكويت لا تميل اليها، على الرغم من ان مدة تعارفها كانت قصيرة. وشعرت سارة بأن هذا ادعى لان لا تفرض نفسها على بيت. وودعت ايان بابتسامة آسفة، ثم عادت للبحث عن جيل.

ولما لم تستطع ان تجد لها، سألت كاتي التي كانت مشغولة في المطبخ تغسل اطباق الغداء. فاجابت بأنها لا تعرف.

«لعلها قد ذهبت لتزور الأنسة اسكويت. لقد ذكرت لي بان الأنسة بيت قد تلفت البارحة».

ولما وجدت سارة ما تزال واقفة تحديق فيها بعبوس، ادارت زر الراديو ورفعت الصوت.

امتنعت سارة عن الرد ذاكرة بانها على علم برأي جيل بشأن هذه المكالمات. وظنت بأنه من غير المحتمل ان تكون جيل قد ذهبت لزيارتها. ولكن لماذا؟ احياناً يدعي الناس بأنهم يكرهون بعضهم بينما لا تكون هذه الكراهية في الحقيقة إلا شيئاً ظاهرياً. إلا ان سارة استمرت على الرغم من هذا في شكها في ان تكون جيل مع بيت. طبعاً، ان كاتي انما تخمن تخميناً.

ولهذا فان جيل قد تكون في مكان آخر، اي مكان!

ما كان للقلعة جيران ملاصقون. وكان اقرب جيرانهم يعيشون على بعد عدة اميال على الساحل. ولولا ان دق جرس الهاتف فجأة لما عرفت سارة من اين تبدأ البحث عن جيل.

كانت سارة قد قررت ان تنسى جيل لبرهة. وتذهب لقضاء ساعة على الشاطئ. لان اليوم كان جميلاً وشعرت باشعة الشمس والبحر يناديانها خصوصاً أنها وجدت نفسها لأول مرة دون مسؤوليات كبيرة. وكانت بيدي نائمة في غرفتها. وفجأة رن جرس الهاتف ممزقاً الصمت المخيم على القلعة. وسمعت سارة وهي في طريقها نحو الباب، فاستدارت وقفزت السلام بسرعة لكي تحجب على المكالمات. وأشارت الى كاتي التي كانت جالسة في المطبخ تقرأ كتاباً، ان تبقى في مكانها.

«الوا».

هتفت في السماعه لاهثة الانفاس. وكانت المكالمات لدهشتها من بيت. وتبدبن مضطربة.

علقت بيت بصوت فاتر.

«أسفًا! قالت سارة واصابعها تنقلص على السماعه. كنت على وشك الخروج عندما رن الهاتف فظننت ان المكالمات هامة».

«ربما من لندن!».

قالت بيت بصوت بطيء تشبه نغماته صوت القطط، مما اثار الدهشة في نفس سارة. ولكن بيت تابعت قائلة:

«في الحقيقة انني كلمت هيو بالهاتف مساء البارحة. انه يحب عندما يكون غائباً ان اكلمه بالهاتف. قال انه سيعود الى البيت في وقت يسمح له بحضور الحفلة- التي اريد ان اكلمك بخصوصها. لقد التقيت بايان ماكنتزي في سالن بعد الغداء. وذكر لي بانه يرغب في اصطحابك الى هذه الحفلة. ولهذا فقد شعرت بانه يجب ان اقول لك كلمة ترحيب».

من العجيب ان تبدر هذه البادرة من بيت! فهي ليست من النوع الذي يحب المساعدة. خصوصاً مساعدة فتاة غريبة لا تميل اليها. ولكن سارة ذكرت نفسها بانها قد تكون على خطأ وانه ليس من حق المرء ان يقفز الى مثل هذه النتائج بعد لقاء وحيد قصير.

«اشكر لك لطفك. ولكنني غير واثقة من قدرتي على تلبية دعوتك. اذ يجب علي أولاً ان اطلب اذنًا من السيد فريزر. ثم ان بيدي مريضة، وجيل وصلت منذ فترة قصيرة فقط».

«بحق السماء، ما دخل جيل في هذا الموضوع؟».

ولسعت اذنها ضحكة بيت الحادة.

«لست ادري ما يدعوك للقلق عليها. فهي تبدو سعيدة بصحبة صديقها الجديد، وهو فنان استاجر كوخاً قرب الشاطئ». هل هيو على علم بالموضوع يا ترى؟».

«لا شك انك مخطئة».

اجابت سارة بحدة، وقد غمرتها موجة من الاستياء. ورفضت ان تصدق ما كانت تعرفه بالغريزة.

ضحكت بيت مرة ثانية. وبدا واضحاً انها استمتعت برنة الفرع في صوت سارة.

«اؤكد لك اني لست مخطئة! فلقد بدت لي جيل في احسن حال عندما صادفتها في طريقي قبل لحظات. وليس في هذا ما يدعو الى العجب لان آل فريزر ليسوا بمن يضيعون وقتهم. ألم تكتشفي هذا بعد؟».

«من فضلك!».

وسقطت سماعة الهاتف من يد سارة تحت وطأة انفعالها، وراحت تحرق بها وكأن مجرد لمسها سيلسعها. يجب ان تعيد الاتصال ببيت كي تعتذر. فلا شك ان بيت تتوقع منها ذلك. ولكنها لم تكن تعرف رقم بيت، ولم تجد لديها الوقت او الرغبة في البحث عنه.

غمر سارة شعور بالخطر. لقد ظنت قبل لحظات فقط ان مخاوفها لا تستند الى اي برهان. والان؟ يجب ان تفعل شيئاً من اجل ان تساعد جيل، لكي تحذرهما وتذكرها بان بيت على علم بعلاقتها الرومانتيكية. وانه من المحتمل ان تخبر هيو. ووجدت سارة، وقد داهمتها موجة من المشاعر المتشابكة، انها غير قادرة على توخي الامانة الكاملة مع نفسها.

يجب ان تحاول العثور على جيل مهما كلف هذا من اجل ان تري بنفسها فيها اذا كان هذا الفنان انساناً بلا ضمير، كما وصفه هيو، او رجلاً مقبولاً وصديقاً معقولاً. ولكن كم كانت غبية لانها لم تستطع الاحتفاظ بهدونها ولم

تسال بيت عن عنوان الكوخ الذي استأجره الفنان! وكرهت سارة ان تسال كاتي عن هذا الموضوع ثانية، خصوصاً انها شكت في ان تسرع كاتي الى تزويدها بالمعلومات التي تريدها.

تركت سارة مكان الهاتف وهي تنتهد. ثم التفتت معطفها هامة بالخروج. وفجأة تذكرت الدعوة التي وجهها اليها ايان بالذهاب معه لزيارة مريض يقطن قرب الساحل بعد ان نزل من غرفة بيدي. وقد قال لها بان المريض يعيش قرب اطلال الكنيسة المهجورة. ولو ان بيت قد صادفت كلاً من ايان وجيل بعد الغداء في الطريق، فلا بد ان تكون قد رأتها في بقعة واحدة، او في مكانين متقاربين. وقد ذكرت بيت بانها رأت ايان في سالن.

سأقت سارة سيارة الجاغوار وقد عاودتها الثقة. لا شك ان جيل قد استخدمت السيارة البيضاء الصغيرة التي تستعملها والدتها عندما تزور لوخ غويل. والتي توضع عادة في المراب الخارجي، مما يفسر عدم انتباه سارة الى مغادرة جيل للقلعة.

توقفت سارة في القرية وسألت مجموعة من الاطفال كانوا يلعبون اذا ما كانت توجد في القرية مجموعة من الاكواخ التي تؤجر خصيصاً للزوار والسياح. وما كانت سارة تحب الحصول على المعلومات بهذه الطريقة، ولكنها شعرت انها افضل من السؤال في أحد الامكنة او المقاهي. فالاولاد سيفتنونها سائحة عابرة تبحث عن الماوى، ويطردونها من ذهنهم حال اختفائهم عن انظارهم.

أخبرها الاولاد، بان هنالك مجموعة من هذه الاكواخ، ألا ان معظمها تؤجر عادة في مثل هذا الوقت من العام. وكانت على وشك ان تشكرهم وتنطلق بسيارتها عندما قالت فتاة صغيرة:

«ان السيد مانسون الذي يسكن في نهاية هذا الشارع عنده كوخان، أجرة أحدهما الى رجل فنان. أما الكوخ الثاني فهو خال، لأن الأمطار تنفذ من سقفه. فاذا كنت لا تباليين بالمطر، فان السيد مانسون سيؤجرك الكوخ الثاني...».

عجبت سارة للسهولة التي عثرت فيها على الكوخ في نهاية زقاق ضيق. لقد كان كوخاً قديماً بني قرب شاطئ النهر يكاد لقدمه يمتد في حوض المناظر حوله. وبدا الكوخ خالياً من الحياة فيها عدا حبلاً من الدخان

الخفيف المتصاعد من بقايا المدخنة.

اقتربت سارة من الكوخ بحذر. وكانت قد تركت سيارتها بجانب رصيف الشارع الرئيسي خشية ان تتعرض للاذى فيها لو ساقتها عبر هذا الزقاق الضيق. ولم تكن تعرف ماذا ستقول او تفعل. وابتهلت وهي تفرع باب الكوخ ان تجد الكلمات المناسبة.

بعد عدة ثوان بدت لها عدة ساعات، فتح الشاب الملتحي الباب، ونظر اليها بدهشة. ولكنه جابهها من دون اضطراب البتة، وقال مجترأ كلماته: «يا للمفاجأة! انك فتاة القارب. اليس كذلك؟ وسكرتيرة السيد فريزر، كما اعتقد».

وعلت وجهه ابتسامة ساخرة.

ولكن قبل ان تجد الفرصة للكلام سمعت حركة خفيفة وراء ظهر الشاب. ثم ظهرت جيل امامها وقد ارتسم على وجهها المتدفق حيوية، تعبير بالاشمئزاز الشديد. وحطت نظراتها على سارة وبدا جلياً انها لم تسر بمشاهدتها.

«انت مخطيء يا كولن. من الأصوب ان تقول عضو البوليس السري، سارة ويتون».

حدقت سارة فيها بمفلة. وأحست بنفسها غير قادرة على الكلام، ممزقة الاعصاب. ولكنها ادركت بعد ان التقت نظراتها بنظرات جيل بان الاخيرة انما نهجت نهج الدفاع عن النفس لكي تخفي جرح مشاعرها. واعترى سارة الاحساس بغتة بأنها دخيلة على الموقف. وكأنها كانت تقف خارج دائرة حطمتها عن عمد.

يجب ان تحاول افهام جيل وصديقها بانها انما اتت الى هنا من اجل ان تساعدهما، وليس بوصفها سكرتيرة هيو. وشعرت بغريزتها بان هذا الرجل هو الفنان الذي يعيش في لندن. وقد ادركت هذا لحظة ان فتح الباب لها. «انا آسفة يا جيل. قد يبدو تصرفي لك مهيناً، ولكنني لم آت الى هنا من اجل التجسس. لقد جئت من اجل المساعدة ومن اجل ان احذرك. هنالك شخص على علم بوجود كولن هنا. وطبعاً لن تمضي مدة طويلة حتى يعرف هيو ايضاً».

«بيت اسكويث، دون شك! واحمر وجه جيل انفعالاً. هذه الكلية

الحقيقية».

«جيل! احتجت سارة محاولة ان تسيطر على انفعالها بجهد. انت تعرفين ان توجيه مثل هذه الالهات لن يوصلك الى هدفك. ولن يشفع لك مثل هذا الاسلوب عند اخيك. لماذا لا ندخل ونجلس لنناقش الموضوع بهدوء؟».

أحست سارة للحظة، بان جيل كانت على وشك ان ترفض اقتراحها. ثم استدارت فجأة بهزة من كتفها وسارت الى الداخل، بينما تراجع كولن عدة خطوات الى الوراء لكي يتيح لسارة فرصة للمحاق بها.

لاحظت سارة ان غرفة الجلوس كانت نظيفة على الرغم من الفوضى التي سادتها. وشاهدت في زاوية من الغرفة حاملاً للوحات تحيط به ما يحتاجه الفنان عادة من انابيب الدهان والفراشي. وعلى الطاولة قرب النافذة، تربعت مجموعة من آلات وأدوات التصوير.

وأضفت النار المشتعلة في المدفأة على الغرفة جواً من الراحة، مغلصة اياها من الرطوبة.

جلست سارة باحتراس على طرف كرسي مقلقل جره كولن من اجلها من تحت الطاولة.

تكومت جيل فوق الكرسي الآخر. ونظرت الى كولن ثم الى سارة بعبوس. ثم قالت فجأة بلهجة اكثر حرارة:

«أسفة يا سارة! قد تبدو لك كل هذه الامور وكأنها سلسلة من المؤامرات والاكاذيب. انني احب كولن وهو يجيني. ونحن نرغب في الزواج. احياناً يندفع الانسان لقول الاشياء الخاطئة بحافز الدفاع عن النفس. لعلك لا تعرفين ان كلا من هيو ووالدي لم يزعجا نفسيهما حتى بالتفكير بمقابلة كولن. لقد حكما عليه قبل ان يشاهدا لانه فنان. ويظهر انهما يظنان انه لا يجد حتى لقمة العيش!».

بذلت سارة محاولة ذهنية لكي تزن الامور حق وزنها. وتذكرت بانها يجب ان تلتزم الحذر على الرغم من تعاطفها مع جيل. ان هذه الفتاة الياقة الشقية تملك قوة التأثير على سامعيها. وهي قادرة ان تخدع اي انسان اذا ما كرست ذهنها لهذا الغرض.

نهدت سارة لاولية فمها، ونظرت الى جيل بأسى:

ولا شك انك قادرة على تدبير مثل هذا اللقاء بينهم. ما كنت لاظن بان الحذق والدهاء ينقصانك».

القت جيل على كولن نظرة سريعة وقالت:

«من المؤسف ان شخصاً ما نقل الى والدتي قصة غريبة عن كولن. وهي قصة غير حقيقية. ولكن امي رفضت ان تصدقني عندما حاولت ان اقنعها بكذبها. انت تعرفين كيف تتعقد الامور. بعد هذه المحاولة كرسيت كل جهودي لكي احول دون ان يلتقي هؤلاء الثلاثة. واعتقد ان هيو قد اصغى الى القصة كما روتها امي قبل ان يأتي الى هنا. وما كاد يراني حتى القى علي محاضرة طويلة، مما جعل الامور تزداد تعقيداً منذ ذلك الوقت». «لماذا لا تبدأين بداية جديدة. بتقديمي الى صديقك؟ ربما نستطيع بعد ذلك ان ندرس الموضوع من جانب او جانبيين».

٦ - أصابع بلا حنان

تناهى الى سارة أزيز النحل من خلال النافذة المفتوحة، يحمله النسيم النقي. وأحست وهي تصغي الى هذه الأصوات بالاسترخاء والنعاس يكادان يغلبانها مما جعلها تدرك بأنها متعبة. ولكن الجو في الكوخ الصغير كان مفعماً بالتوتر الى حد جعلها غير قادرة على الاستجابة للاسترخاء الحقيقي.

واعترأها فزع طفيف عندما لاحظت ان جيل كانت تجلس بلا حراك، تعلو وجهها التمرد تقطبية عميقة، وكأنها لم تستسغ اقتراح سارة. وسادت صمت طويل مزبك. وفجأة نهضت جيل هازة كتفيتها بلامبالاة، وانجهت نحو كولن ثم جرت الى الامام.

«اظن بأنني تصرفت بصيبانية، ودون تفكير. على كل، واذا كنت ما تزالين تصرين، فأنا اقدم لك كولن براون، المجرم الخطير من لندن». نظر كولن من جيل الى سارة، وفي عينيه وميض من التسلية. ومد يده الى سارة ليصافحها. فشعرت بأنها تراه لأول مرة كما يجب. كان رجلاً طويلاً ويذا وجهه في النور الخافت نحيلاً غائراً. ولاحظت ان فمه كان مشدوداً رغم وقفته وسلوكه اللامتكلفين.

«ها نحن نلتقي رسمياً في النهاية، يا آنسة ويتون. يجب ان اعترف بأنني رأيته مرة ثانية بعد اليوم الذي انقذت فيه حقيقتك. ولكنني ظننت انه من الحكمة الا اقترب منك. لعله كان من الأفضل ان ادرك بأنك ستكتشفيني ان عاجلاً او آجلاً. لا. وابتسم وهو يشد اليه جيل بحنان. اعتقد انك تتساءلين الآن ماذا ننوي جيل وأنا ان نفعل، واية مؤامرات

نطبخ في الخفاء».

«هذا اذا ما اخترنا الطريقة الفجة في التعبير، يا سيد بروان».

وجابهت سارة عينيه الرماديتين اللامعتين. وابتمت استجابة لابتناسامته. واعجبتهما طريقته الحازمة في المصافحة.

«اعترف بأنني قلقة نوعاً ما. قالت سارة. هل تعتبر فضولاً مني لو سألتك عن مهنتك بالضبط. هناك فئات عديدة للفنانين».

«لا ابدأ. ابتدأت بالعمل في شركة كبيرة كفنان تجاري. ثم تركت الشركة وقررت ان اقدم خدماتي لجهات متعددة. كانت الأمور صعبة في البداية. ولكنني اعتبر ناجحاً في عملي الآن. واكرس معظم وقتي لرسم الشروح المصورة في الكتب، واحياناً ارسم المناظر الطبيعية. وفي الوقت الحاضر، انا اقوم برسم مجموعة من الطيور والحيوانات لشرح كتاب للأطفال عن مناطق الهايلاند».

«ولكنك قدمت الى هنا قبل ثلاثة اسابيع؟».

ابتسم كولن ابتسامة طافحة بالاستياء وشد اليه ذراع جيل.

«من اجل ان انجز بعض العمل قبل قدوم جيل. كان من القسوة ان اتركها وحدها في المستشفى ولكنها اصرّت. فأنا احب ان آخذ الصور لموضوعي قبل ان اشرع بالرسم. لأن هذا يساعدني على ضبط الألوان والتفاصيل. وعندما تكون جيل برفقتي فإنها لا تنقطع عن الثرثرة مما يفزع الطيور على بعد عدة اميال».

«والآن، هل تتوقعان ان تبقى هنا بدون ان ينكشف امركما. لا بد ان يعرف هيو الحقيقة».

«لقد كانت مغامرة قررنا ان نخاطر بها. اعلنت جيل بتمرد. في البداية جاء هيو الى القلعة من اجل ان يصفى املاكه هنا. وكان ينوي البقاء مدة قصيرة. اما الآن فهو يفكر بالاستقرار هنا على الدوام. ولهذا فأنا اتوقع ان يكتشف امرنا يوماً ما».

قفز قلب سارة بعنف. اذا كان هيو قد قرر الاستقرار هنا، كما ذكرت جيل، فلعله يحتفظ بها كسكرتيرته، اذا ما احتاج الى واحدة. ولكن هل من الحكمة ان تقبل. وشعرت برغبة جنونية في ان تضمها ذراعاها مرة ثانية، ويعانقها بشدة.

سحبت سارة نفساً سريعاً، مرتجفة، طاردة صورة هيو من ذهنها.

«انني ما زلت ارى ان تصطحي كولن لتقدميه الى هيو، يا جيل. من اجل ان تشرحي له قضيتكما بوضوح. ثم ان هيو لا يستطيع ان يمنعهما من الزواج لأنك تجاوزت الثامنة عشرة».

«ولكنني احب اسرتي، وأفضل ان احصل على الموافقة».

«يجب ان اسرع بالعودة. قالت سارة وهي تلقي نظرة سريعة على ساعتها. والا ارسلوا من يبحث عني. الساعة تقارب الخامسة. اقترح ان تتبعيني يا جيل. لعلنا نستطيع ان نصل الى قرار هذا المساء، بعد العشاء مثلاً».

«عاجلاً لا آجلاً وافق كولن باقتضاب. وتبعها الى باب الكوخ. فأنا لا استسيغ كل هذه السرية والكتمان».

سارت الأمور اثناء تناول العشاء على ما يرام. ولكن قبل ان تستطيع سارة الاجتماع بجيل لكي تقنعها بوضع خطة بناءة لحل المشكلة، وصلت بيت بصحبة صديقتين.

وبينما اخذت سارة تساعد كاتي في اعداد المزيد من القهوة، لاح لها انه ليس هناك ما لا يمكن حله باستخدام التفكير السليم. ان كولن براون يبدو عن قرب رجلاً لطيفاً. واذا كان قد ذكر الحقيقة فإن مستقبله لامعاً ينتظره. ولم تشك سارة في انها قادرة على اقناع هيو بأن يتبنى رأياً أكثر مرونة، فيها لو سمحت لها جيل بأن تتحدث اليه في الموضوع بعد عودته. هذا لا يعني بأنها تتلهف لأن تفتح معه مثل هذا الحديث. ولكن لا بد ان يحاول شخص ما ان يأخذ على عاتقه تسوية هذا الوضع المشتبك الذي خلقت سلسلة من الأخطاء وسوء التفاهم. وشعرت سارة انه من الأفضل ان يسمح لجيل بأن ترى كولن دون المزيد من المعارضة. لأن هذا من شأنه ان يعطيها الفرصة لكي ترى علاقتها الرومانتيكية به بمنظارها الحقيقي من غير هذه الهالة الدرامية الاصطناعية.

امضت سارة ساعة بعد العشاء في سكب القهوة وتقديم البسكوت دون ان تفرض نفسها على الحضور. مع ان بيت اسكويث كانت لا تزال تذكر مناقشتها الحادة في التلفون. فإنها لم تلمح اليها بشيء. بل على العكس بدت وكأنها تبذل كل ما وسعها من اجل ان تكون لطيفة مع سارة الى الحد

الذي دفعها الى ان تجدد دعوتها لها لحضور الخفلة بأسلوب وجدت من الصعب معه ان ترفض الدعوة. ولكن كان اكثر ما اثار دهشة سارة هو سلوك جيل. وتعبت لماذا راحت الفتاة تتزلف بهذه الطريقة الى بيت. وللمرة الثانية غمر سارة شعور عميق بالشك. الا انها في النهاية قررت ان تتوقف عن تحليلها للأمور. وبعد ان غسلت فنانجين القهوة الفارغة، وتأكدت من ان بيدي كانت مرتاحة، ذهبت الى فراشها وهي تعاني من آلام الصداع.

في صباح اليوم التالي جاءت جيل لتبحث عنها في المكتبة حيث كانت تصنف بريد الصباح. كان الوقت يقارب الظهر. ولكن جيل كانت ما تزال تتأهب من اثر النعاس، وكأنها لم تنم طوال الليل.

«انا اسفة يا عزيزتي. ولكنني اشعر بالتعب. قالت جيل محاولة ان تفسر بدون ان تدعو الضرورة. تأخرت بيت في الذهاب. ولما جئت لاراك وجدتك نائمة بعمق. كنت على وشك ان اوقظك. ولكنك بدوت كمن تحلم احلاماً لطيفة. هل كنت تحلمين بايان ماكنتزي؟»

«جيل!»

واستدارت سارة لتنظر اليها نافذة الصبر، ورفعت شعرها الأشقر الطويل عن وجهها:

«لقد امضيت يوماً متعباً جداً البارحة مما جعلني اتأخر في النهوض هذا الصباح. قل لي ماذا تريدان ودعيني اتم عملي هنا؟»

ما كانت سارة على ثقة بأن من حقها ان تتحدث الى اخت رئيسها بهذه الطريقة. لكنها اكتشفت انه من الأفضل مواجهة جيل بصراحة بدلاً من المداورة. الا انه لم يكن من السهل التخلص من جيل.

«ارجوك يا سارة، لا تغضبي مني. يجب ان اكلمك الآن لأن هيو قد يعود فجأة. وهذا تصرف ليس بالغريب عليه!»

بدت جيل جذابة بينطلونها الواسع الأزرق. وتربعت على حافة مكتب سارة محدقة في وجهها بعينيها الواسعتين المتوسلتين.

«ان الموضوع يخص كولن. لا اريد هيو ان يعرف انه هنا، ليس الآن على الأقل. دعي الأمور تحتمر قليلاً... الى حين عودة والدتي على الأقل. ما رأيك؟»

«ولكن يا جيل الا تعتقدين بأنك اذا استطعت استعماله هيو، فإنك تحلين بذلك العقدة الكبرى؟ ثم اضافت بصوت ذي مغزى. وماذا بشأن الأنسة اسكويت؟ انها تعرف ان كولن هنا، على الرغم من انه لا علم لها بالتفاصيل!»

«اعرف. ولكني لا اعتقد بأنها ستفصح سري. اذا كانت تريد ان تتزوج هيو، فعليها ان تتعلم كيف تعاملني.»

لم يكن من طبع جيل قبول اية معارضة. «هل تظنين بأن بيت اسكويت ستدع امرأ صغيراً كهذا يقف في طريقها؟»

سالت سارة بجفاء، وقد اثار امتعاضها الانانية التي غلفت حجة جيل.

«قد تدهشين! لمحت جيل بدهاء. قد لا اكون اكثر من اخت هيو غير الشقيقة. ولكن والد هيو كان كوالدي. كما ان هيو شديد التعلق بامي. وبالإضافة فأنا استطيع ان اقول له شيئاً او شيئين عن بيت.»

«اسكتي يا جيل! هل تعرفين ماذا نطلبين مني ان افعل؟ تريدني ان اغض عيني حين تذهين لتفضي ساعات في كوخ برفقة رجل غريب؟ هنا في هذه الجزيرة التي يعرفك فيها الجميع؟ ولكن سواء افعلت هذا هنا او في اي مكان آخر فإن التصرف نفسه ليس اخلاقياً. وبالإضافة، فأنا اعتقد ان كولن يتفق معي بالرأي.»

«طبعاً. ردت جيل بسخرية. ان كولن يشابهك من حيث التعنت الاخلاقي. واذا ما داخلك القلق علي في هذا الشأن، فأنا انصحك بأن تطمئني بالأ. لقد كلمني بالهاتف هذا الصباح ليقول لي بأن اخته قد جاءت لتقيم معه مدة اسبوعين، مما يعني اننا سنكون تحت رقابة كافية.»

ونظرت سارة الى جيل التي قفزت على قدميها. وقالت بصراحة: «اذا كان ما قلته هو الحقيقة، فلن اذكر شيئاً امام هيو. ولكنني لن احاول ان اعطي على تصرفاتك عن عمد. انك لا ترغيبين في الاقضاء اليه بالحقيقة ولهذا فلا تتوقعي مني الشفقة اذا ما اكتشف الأمر عن طريق شخص آخر.»

قبل ان تستطيع سارة ان تهضم خطر هذا الوعد الذي قطعته على نفسها

عاد هيو من لندن في مساء هذا اليوم بالذات، بعد الغداء. ودخل الى القاعة بينما كانت جالسة تتحدث الى بيث التي جاءت للزيارة من دون سابق انذار، متحججة بسبب واه، وبدت جيل التي امضت العصر خارج المنزل تعب. وراحت تتأهب وهي تقلب صفحات مجلة قديمة. ولمحت بيث اولاً وهو يفتح الباب فهتفت:
ويا للساء! لم تتوقع وصولك بهذه السرعة. هل تناولت غداءك؟
«نعم».

اجاب باقتضاب محيياً على ابتسامة بيث بمثلها. ولوت سارة عنقها لتنظر اليه، وهو يقترب من المدفأة وتنقلت نظراته بين بيث وسارة التي رأت صورتها تنعكس للحظة في عينية السوداء قبل ان يلتفت الى بيث قائلاً:
«لقد جئت بالطائرة برفقة ديكسون الذي صادف وجوده في لندن وجودي هناك».

«هل انت متأكد انك تناولت عشاءك؟»
سالت بيث مرة ثانية، وكأنها سيدة البيت كما لاح لسارة. وتنهى هيو بارتياح ثم جلس.

«لقد تناولت عشاءتي في كاراسينغ. ومع هذا فأنا ارحب بفنجان من القهوة، اذا لم يكن في هذا ازعاج».

«لقد فرغنا لتونا من تناول القهوة».

قالت بيث بابتسامة دافئة وعيناها تلتمعان.

هبت سارة من مكانها، وسارعت الى صينية القهوة وكأنها حبل الامان.

لأنها ارادت ان تفعل اي شيء ينقذها من نظرات هيو الكاسحة.

«ساعد بعض القهوة من جديد. قالت بسرعة. ان كاتي لا تعمل هذا المساء. وقد ذهبت الى القرية مع صديقتها».

ولكن، لاستغرابها الشديد، وجدت هيو يقف بجانبها فجأة، متجاهلاً تقطيع بيث. وتناول صينية القهوة من يديها.

«اسمح لي! سأتي معك لكي اجلب القهوة بنفسني. هناك امر او اثنان اريد مناقشتك بشأنها».

تمهل سارة. ولكن جيل اثار دهشتها عندما ففرت فجأة، واقترحت بابتسامة معسولة:

«لماذا لا تسمحان لي بعمل القهوة، بدلاً من ان تتنازعا يا هيو؟ ورفعت رأسها، وطبعت على وجهه قبلة مرحة. انا سعيدة بعودتك. واذا ما تبرعت باحضار هذه القهوة التعيسة، فقد تجلس وترتاح. ان شغلك مع سارة لا يمكن ان يكون على هذه الدرجة من الامة».

لم يجادل هيو مما اثار دهشة سارة. ووضع صينية القهوة مسرعاً بين يدي جيل بطاعة وسلبية.

وراقبت سارة وهو يجلس ماداً رجليه الطويلتين، ثم يتوجه بانتباهه كله الى بيث.

«لا شك انك في غاية التعب، يا عزيزي هيو».

قالت بيث بصوت يفرض بالشفقة وهي تنظر اليه بحنان.

«ولكن اذا ما اردت ان تناقش بعض الأمور مع الأنسة ويتون، فافعل ولا تهتم بوجودي».

عضت سارة على شفتيها، وقد فاض في نفسها نوع من الحقد اللاشعوري. يبدو انه يتلذذ بجعلها هدفاً لملاحظات بيث المؤلمة. ونظرت سارة الى هيو بغضب يائس لم تستطع له تفسيراً، حتى ادار وجهه باتجاهها.

ورمقتها عيناه القامتان بسخرية افزعته، وكأنه نحن ما كان يطوف في ذهنها. ووجدت سارة صعوبة في الاشاحة بوجهها. وغمرت كلماته التي تفوه بها بغمامة من المشاعر.

«ما اريد ان ا قوله للأنسة ويتون يستطيع الانتظار لخمس دقائق. سنذهب الى المكتبة ونحدث بعد قليل».

احست سارة في كلماته رنة التهديد. بماذا يتهمها الآن؟ وارتعشت متسائلة لماذا يثير هذا الرجل الغامض في نفسها كل هذه المشاعر المعقدة.

«في اي وقت تشاء».

وافقت سارة بسرعة، وبابتسامة مقتضية، كارهة ان تظهر ولو ذرة قلق واحدة، خصوصاً امام بيث، الا ان صوتها بدا لاهثاً. وداهمتها مئات من الشكوك.

وراحت تصغي الى هيو يتحدث الى بيث عن اصدقائهم ومعارفهم في لندن. وترك هذا الحديث في نفسها انطباعاً حسناً، فقد لاح ان هيو قد قضى وقتاً مفيداً، ولم يقابل اية كارثة كبيرة! وغمرها الارتياح عندما عادت

جيل اخيراً تحمل بعض القهوة.

«هل استلمت شيئاً من امي، يا هيو؟»

وابتسمت ثم جلست بجانبه لكي تسكب القهوة.

«لقد اتصلت بها من لندن. قد تعود من الخارج قريباً، ربما بعد

اسبوعين».

لاحظت سارة الاحمرار الذي كسا وجنتي جيل التي احتجت بغضب:

«كان احري بها ان تكلمني بالهاتف. فهي لم تتصل بي منذ ان سافرت.

لماذا كلمتك انت بدلاً مني؟».

«لقد كلمتني بشأن بعض الأعمال. اجاب هيو محاولاً تهدئتها، وشرب

قهوته كلها مرة واحدة. ثم ملأ الفنجان ثانية. وكنت انا الذي اتصلت

بها».

«لا شك انك ستسمعين عنها في القريب العاجل. قالت بيت مقطبة

الخبين وبابتسامة تأنيب جعلتها تبدو اكبر من سنّها. انت تعرفين ان لديها

الكثير مما يشغل ذهنها».

«اثناء اجازتها؟».

ردت جيل وهي ترمق بيت بنظرة مكفهرة.

وضع هيو فنجانها، وقال بحزم.

«انت تعبّة دون شك يا جيل. فالوقت متأخر الآن. ونظر الى ساعته.

لقد ذكرت بيت قبل قليل بأن الوقت قد حان لذهابها. أما أنا فأريد ان اقول

شيئاً لسارة. ارجو ان تذهبي الى غرفة المكتبة يا سارة وتنتظريني هناك.

سألق بك بعد ان اودع بيت».

اشاحت سارة وجهها عنه بسرعة. ووقفت على قدميها. ثم تمهلّت لحظة

لتقول:

«اذا لم يكن عندك مانع، فسأذهب لأرى بيدي أولاً. سأعود بسرعة».

صعدت سارة الدرج بسرعة لترى فيها اذا كانت بيدي تحتاج الى اي

شيء. وكانت قد اخذت لها بعض الحليب والبسكوت حوالى الساعة

التاسعة. ووجدتها الآن على وشك الاستسلام للنعاس. وسرها كثيراً ان

تسمع بأن هيو قد عاد الى البيت.

«اشعر بالامتنان لعودة السيد هيو سالماً. هتفت قائلة. انا لا احب هذه

الآلات الطائفة».

وابتسمت عندما سوت الاغطية فوقها بلطف ثم اطفأت النور.

«كيف حالها؟».

سأل هيو عندما دخلت سارة الى غرفة المكتبة واغلقت الباب. كان واقفاً

قرب المدفأة ويداه خلف ظهره. واعتراها شعور غريب بعدم التكافؤ عندما

سار بضع خطوات الى منتصف الغرفة.

«في تحسن. ان الراحة في السرير قد نفعتها كثيراً».

فكر هيو فيما قالته للحظة، ثم سأل:

«هل استطاع طبيبتنا الطيب ان يصنع حبواً سحرية؟ او هل نجح فيما

اخفق فيه غيره؟ لم يسبق لي ان سمعت ان بيدي لزمت الفراش من قبل!».

فتمتمت سارة بوداعة واستحياء:

«ربما يكون قد جمع بين الاثنين».

كرهت سارة ان تقول له بأن ايان جاء لزيارة بيدي كل يوم خلال غيبته،

بما جعل بيدي تعتقد بأن حالتها كانت أسوأ مما ظنت. وهذا بالطبع دفعها

الى ملازمة الفراش!».

«اظن ان بيدي بحاجة الى اجازة بغض النظر عن مرضها. يبدو انها لم

تأخذ واحدة منذ سنوات. وادارة مثل هذا البيت ورعايته يتطلبان مجهوداً

كبيراً دون شك!».

«طبعاً».

قال هيو بنزق، وبدا كمن فقد الاهتمام بالموضوع وشرّد ذهنه الى امور

اخرى.

تحركت سارة قلقه وقد دامها شعور بالارتباك. وراح نسيم الليل

المتسرب من النافذة يحمل اليها آلاف الروائح المختلفة وصوت البحر

البعيد. وفجأة احست بالاجهاد، واعتراها ما يشبه الغيبوبة نتيجة للتعب

والعصا العاطفي. ونظرت الى هيو بانتباه وهي في انتظار ان يتابع كلامه،

حتى كادت ملاحه تنطبع تماماً في ذاكرتها. ثم قالت لتحنّه على الافضاء بما

يريد:

«لم تسألني القدوم الى هنا من اجل التحدث عن بيدي؟».

«لا. ولكنك لا تبدين في حالة تسمح لك بمتابعة اي نقاش. ماذا فعلت

بنفسك اثناء غيابي؟»

ترددت سارة للحظة، ولم تعرف بأن النور فوق رأسها كان ينعكس مباشرة على وجهها مجسماً كل زواياه. وكانت ترتدي ثوباً اسود من الجرسية بقبة مفتوحة، مما اظهر بياض جلدها ورقة عظامها النحيلة. وكان شعرها منساباً متهدلاً كغلالة من الحرير فوق كتفيها. وقالت بصوت رنت فيه نغمة الاحتراس:

«اعترف بأنني كنت مشغولة. ولكن ليس هنالك ما يستدعي الاهتمام».

«فهمت».

وسار الى حيث كانت واقفة في وسط الغرفة.

«دعيني ارى كم كنت مشغولة».

ورفع ذقنها وراح يتفحص الظلال الباهتة على خديها المضرجين واصابعه ما زالت تحتفظ باللمسة القاسية نفسها.

«من فضلك!».

احتجت سارة بصوت منفعل. ولكنها لم تستطع ان تترجح. واختلج وجهه بنظرة عدائية حسية. فقال فجأة وهو يهز رأسه عابساً:

«انك تبدين جميلة جداً... ومغرية».

«قد تظنني جميلة. ولكنك لا تستلطفني. اليس كذلك؟».

واسودت عيناه اذ اجاب قائلاً:

«انا لا احب الطريقة التي تؤثر بها المرأة على الرجل، اذا كان هذا ما تعنين».

«هذا شيء مختلف».

«كم تحب النساء ان يعقدن المسائل، انهن ولدن من اجل خلق المشاكل».

«انك لا تستطيع ان تصنفنا كلنا تحت عنوان واحد. ان بعض النساء قادرات على منح السعادة العميقة للرجال».

«لا. اعترض بلهجة ناعمة. العكس عادة هو الصحيح. ان على الرجل دائماً ان يبذل كل المجهود. اما بالنسبة اليك، فإنني اظن بأنني لا اميل اليك او استلطفك. ولكن يجب علي ان احمملك الى حين انتهائنا من

مهمتنا هنا».

وقف على بعد عدة سنتيمترات منها فقط. ورمقتها عيناه بانتقاد، متنقلة فوق عظام عنقها وكتفها الرقيقة.

«كل هذه الحساسية والقابلية للعطب... اعتقد ان موت والديك قد سبب لك هذا».

هبت سارة واقفة وكأنها قد سمعت في مكانها، وقد حرمتها الصدمة من القدرة على التفكير. كيف اكتشف الحقيقة؟ لماذا يعاملها بهذه الطريقة؟ وتحركت يداها بتشنج محاولة ان تدركها عنها، وتعبر عن اشمئزاز لم تستطع ان تجرد الكلمات القادرة على وصفه.

«كيف وجدت الحقيقة؟ كيف تمكنت من ايجاد الحقيقة؟».

وانقبضت حنجرتها اذ احست بالآلم يحيش في نفسها كجرح فتح من جديد.

امسك هيو بها، فأحست بقبضته على ذراعها تسبب لها من الآلم ما يوازي الآلم الذي اجتاح قلبها. ورفع رأسها حتى اجبرها على النظر اليه. الا يملك ذرة من الرحمة؟ واحتوتها عيناه السوداوان:

«لقد قلبت لايان ماكنزي، كان والدي طبيباً. كان... بالقلم العريض. من المحتمل ان ايان لم يلاحظ. ولكن الأمر اثار فضولي».

«ولهذا حاولت التدخل فيما لا يعنيك».

«تماماً».

«كيف؟».

«رأيت صديقتك جين هذا الصباح قبل ان اترك لندن. كان عندي موعد مع جيمس كار».

«لم يكن بخصوصي بالتأكيد؟».

«كنت قد صممت على معرفة الحقيقة، ووجدت جين هناك فاغتنمت الفرصة».

كان الهواء بينها مشحوناً بالكهرباء والغضب المتأجج. وقالت سارة:

«لقد ظننت بأن والدي اجبر على التحلي عن مهنته، اليس كذلك؟ وشككت في ان يكون هناك شيء مشين في الموضوع».

فرد هيو بصوت مفعم بالغيط:

«هذا لا يهمني على الإطلاق. إنما أردت أن أعرف ما الذي يجعلك تتكتكين كالساعة. وما تخفيه هذه الواجهة من الحساسية المرهقة المثيرة. وظننت أن السبب قد يكون رجلاً... قصة حب تعيسة. فلقد افلحت منذ قدومك إلى هنا في أن تستثيري خيالك بشكل لا يستساغ». علت وجه سارة نظرة بعيدة نائية إذ أخذ برود عميق يزحف إلى شعورها:

«والآن بعد أن انتهيت من عملية البحث والتحري، واستطعت أن تحل اللغز، فإنك قد فقدت الاهتمام بي من غير شك». ضحك هيو ضحكة قصيرة. وضاحت عيناه اللتان كانتا تتفحصان وجهها الأسّي بانتباه ويقظة:

«لن أقول هذا. ولكن علينا أولاً أن نحاول تخليصك من عذابك الداخلي». وهزها برقة:

«سوف تتخلين على فجيعتك. لقد كانت تجربة مريعة. ولكن عليك أولاً أن تهبطي إلى الأعماق المجردة، ثم تبداي من جديد. لن تستطيعي معرفة السكينة إلا إذا واجهت فجيعتك وجهاً لوجه». حاربت سارة فيضان دموعها اللاسعة وقالت:

«إن فلسفتك تدهشني، وقسوتك أيضاً». فرد بابتسامة ساخرة لا تخلو من العطف وهو ينظر إلى خديها المحمرين:

«الحياة تمضي بنا يا سارة. وإذا ما أردت أن ترافقي موكب الحياة فعليك أن تتعلمي كيف تعيشين مع أحزانك، لا أن تدعيها تجرفك». «أنت تدعي بأن الحزن لفقد الوالدين هو غير طبيعي؟». «طريقتك في الحزن... نعم. لقد لاحظت هذا منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. كان هنالك شيء يتأكل بنفسك...». وقد وشت به عشرات من التصرفات الصغيرة والأشياء العابرة. وهي التي ظنت بأن أحداً لن يستطيع أن يجزراً! وقاضت بها كأس المرارة فصرخت:

«أكرهك لأنك سألت جين». هاجته سارة دون وعي. وهي تشعر بأنها عزلاء ضد منطقة القاسي.

وراحت عينها تتلألأ، ولكن الدموع لم تسقط منها. «لقد قلت لها بأنني قد بدأت أحسن. ولكن بعد هذا ستعود للقلق علي».

«عندما تركتها بدت مسرورة. وقد تكلمنا معاً». «آه فهمت...».

قالت سارة وقد اتسعت عينها تحت وطأة الارتباك الذي دامها. لم تتوقع هذا منه. هل تجرؤ على سؤاله عما حدث؟ ولكنها ربما تستطيع التخمين. إن جين دون شك اضطلعت بالجزء الأكبر من المحادثة دون أن تحتاج إلى سؤال ذكي بين الحين والآخر. والنتيجة الآن هي أن هذا الرجل القاسي القوي الإرادة قد أصبح علياً بتفاصيل حياتها منذ المهد. لأنها بالنسبة إلى جين هي الابنة التي لم يكتب لها أن تنجبها، والتي لن تلدها ولو تزوجت مرة ثانية.

تحركت سارة كالمنومة. وعيناها الواسعتان الزرقاوان تعكسان توسلاً لاشعورياً وتشدان التعزية والسلوان. وتابع هيو، طاحناً الكلمات.

«إن ما تحتاجين إليه الآن هو ثورة عاطفية من نوع آخر. تجربة أكبر من أن تستطيعي مجابهتها، تجربة تكتسح بقايا مشاعر الشفاق على النفس التي تمسكين بها بكل هذه الصلابة». «مثلاً...؟».

حرق هيو في سارة وقال بسوداوية:

«إن الثورة العاطفية توصف عادة بعلاقة حب. ربما من الأفضل أن تركزي اهتمامك على إيان ماكنزي الذي لن يبدي اعتراضاً بالتأكيد. أحياناً، حتى أنا أجذك جذابة وساحرة». انطلقت يد سارة باتجاه هيو دون أن تستطيع لها منعاً. ولكن قبل أن تصل إلى وجهه الساخر أمسك بها في قبضته الجامدة. وشدها إلى الأسفل مسبباً لها الألم الذي أرادت أن تسببه له.

«لا أستطيع أن أفهمك!».

قالت لاهثة تكاد تشق بالبكاء. وغلبها الوهن والضعف. ثم أحست يده تمسح على ذقنها. إن تأثير الصراع في هذه الساعة المتأخرة أخذ يبدو

واضحاً عليها. ولاح وجهها شاحباً مجهداً. ولما ادرك هيو مقدار تعبها، تغير التعبير المرتسم على وجهه، وتراخت يدها. وصرخ صرخة مكتومة وهو يدفع بها بعيداً عنه الى كنية كبيرة. ثم سكب لها قدحاً من الماء ووقف بجانبها حتى تجرعت كفه، وعلت وجهه ابتسامة خفيفة اختفت تحتها تقطيعته، قال بلهجة كالحة:

«بيدو انك قد نجحت على الأقل في تخرج كأسك دون ان تشرقي او تسعلي».

«لست طفلة».

قالت سارة، ثم اكملت تخرج كأسها، لا لأنها عطشى، ولكن لأنها ارادت بأية طريقة ان تسترجع ثمالها لنفسها. وبعد فترة قصيرة قال هيو بسخرية:

«والآن، يا صغيرتي، اذا لم يكن لديك مانع، فأرجوك ان تغادري الغرفة لأن لدي بعض ما اريد انجازه هنا».

«ولكنك قلت... بأن هنالك بعض الأمور التي تريد ان تناقشها معي».

فأجاب هيو بابتسامة متعكدة، مطلقاً عليها من علو:

«كان هذا مقصدي قبل ان احيد عن الموضوع، وادخل في تشعبات لا صلة لها به، اما الآن فأنا اتوي التخلص منك قبل ان يحدث هذا مرة اخرى. لقد عاد اللون الى وجنتيك الآن، ولكنني لا اريد ان يغمى عليك او أي شيء من هذا القبيل هذه الليلة. غداً ستتاح لنا الفرصة لمناقشة شؤون العمل ما حلاً لنا».

ومد لها يده بحركة مهذبة بحتة ليساعدها على النهوض. ولكنها اختارت ان تتجاهلها، ووقفت تترنح على قدميها. كانت عضلاتها ما تزال ترتعش قليلاً.

«ما رأيك، هل استعادت جيل صحتها الآن؟».

تعثرت سارة مجفلة وهي في طريقها الى الباب. كانت على وشك ان تلقي عليه تحية المساء عندما هبط سؤاله فوق رأسها المجهد التعيس. ولم تستدر اليه وهي تتمتم: «نعم»، محاولة ان تحجب عنه وجهها. وشعرت سارة بأنه حتى ولو توقفت حياتها على قول المزيد لما استطاعت.

«حسناً، لا داعي لأن تتصرفي وكأنك قد اصبت برصاصة في الظهر. في الحقيقة لقد فكرت ان اصطحبها معي الى ايونا غداً. استطيع ان اخلط النزهة ببعض العمل لكي لا اضيع الوقت. هل سبق لك أن ذهبت الى ايونا؟ هل تحبين ان تأتي معنا؟».

التفتت سارة اليه نصف التفاتة بعصبية. وبدا جانب وجهها مشدوداً متوتراً. كانت متأكدة ان جيل لن ترغب في الذهاب دون كولن. ولكن هيو لا يعرف بوجود كولن هنا. وقد وعدت سارة الا تخبره. انها ورطة! لماذا، بحق السماء، وافقت على ان تحتفظ بسر جيل؟ لماذا لم تملك من حدة الذهن ما يجعلها تتبين ما يعنيه ويتضمنه مثل هذا الوعد؟

«لماذا... لماذا لا تترك الحديث في هذا الموضوع حتى صباح الغد؟ انت تعرف جيل. من المحتمل ان تكون قد رتبتي مشروعاً اخر. فأنت لم تحدد موعد عودتك».

عندما استيقظت سارة في الصباح رأت وهي تأخذ حماماً سريعاً بأن كلماتها الأخيرة خير ما امكنها ان تقوله. وسارعت الى ارتداء ثيابها أملة ان تعثر على جيل، وتخبرها بنوايا هيو قبل ان يجتمع بها. اذا كانت جيل لا تريد ان تذهب الى ايونا، فعليها ان تحاول الافلات معتملة على نفسها، شارحة اذارها من دون مساعدة. فهي لا تريد ان تضيف جريمة اخرى الى قائمة جرائمها فيها لو اكتشف هيو الحقيقة.

لم تجد جيل في غرفتها. ودهشت سارة عندما هبطت الى الاسفل لتجد ان جيل قد انتهت من تناول فطورها تقريباً. وقالت لسارة بأنها خرجت لركوب الخيل برفقة هيو في الصباح الباكر، وانها قررت مرافقته الى ايونا. «بهذه السهولة؟ وانا التي قضيت ليلة بأكملها اقلب الامور دون ان استطيع النوم؟».

«ولم لا؟ الحقيقة يا عزيزتي سارة هي ان اخت كولن ليست من النوع الذي أبه له. كل ما تريد ان تفعله طوال النهار هو التجول في البراري. وهي مجنونة، ككولن، بمراقبة الطيور. ولكن لاسباب مختلفة».

«مثلاً...؟».

«تعرفين ان كولن يذهب لمراقبة الطيور من اجل الحصول على الصور اللازمة لعمله. وهو الآن قد حصل على كل الصور التي يحتاجها،

ويستطيع ان يعود الى لندن وينهي لوحاته هناك . الا ان غوين تصر على ان يرافقها . اعتقد انه اصيب بالعدوى .
«اية عدوى؟»

«مراقبة الطيور! اجابت جيل بغيظ . لا تبدين حاضرة البديهة هذا الصباح ، اليس كذلك؟ حسناً ، لقد قال كولن لاخته ، دون ان يسألني ، بأنه لا مانع لديه من مرافقتها . ولما عرفت قلت له بأنني شخصياً اعترض . ولكنك لا تعرفين كولن» .

«وكيف استطيع؟ اجابت سارة باحتراس . اننا لم نتقابل الا مرة واحدة . ولكنني ظننت بأنك تحبين كولن!» .

«طبعاً احبه ، ولكنني لست جاهلة باخطائه . انه يناقش طويلاً . وهو عنيد جداً . انه مجنون ، مثلك ، بضرورة اخبار هيو . لقد امضيت دهرًا البارحة لاقعته بالعدول عن الفكرة . اما الآن فهو يحتاج بأننا اذا ما كنا بحاجة الى الاجتماع فعلينا ان نراعي اخته» .

هذا التصرف يليق بكولن! قالت سارة بصمت محاولة ان تخفي ابتسامه ، لقد اعجبها تصرف كولن . كلما عرفت سارة المزيد عن كولن مالت اليه . ان جيل فتاة افسدها التدليل . ولا شك انه من مصلحة كولن الا يشارك في تدليعهما ، ان بعض المعارضة لاهوائها لن يضرها .

«ولهذا فقد قلت لهيو بأنني ارحب بالذهاب معه الى ابونا بعد الغداء . كل شيء على ما يرام . كاتي ستعتني بيدي . وكولن سيعتني باخته ، اما هيو العزيز فسيعتني بك وب» .

واتكأت جيل على ظهر مقعدها وقالت بخفة :
«اذا ما لعبت اوراقي كما يجب ، فقد اكتشف لماذا ذهبت امي الى امريكا ، وماذا تفعل هناك؟» .

«لماذا لا نحاولين ان ننسي مشاكلك يا جيل ، هذا العصر فقط!» .
«حسنًا! . قالت بابتسامة قوية ، وقفزت على قدميها . آسفة يا سارة ، اعدك بأن اسلك سلوكاً طيباً اذا ما وعدت بأن تصرفي انتباه هيو عني الى حين عودتي من زيارة كولن . يجب ان يفهم بأنه ملكي هذا الصباح . تستطيع غوين ان تفعل ما تشاء به بقية اليوم» .

٧ - أشكال العذاب!

كان الجو جميلاً عندما غادروا القلعة حوالي الساعة الواحدة ظهراً بعد ان تناولوا غداءهم مبكرين . وساق هيو سيارة اللاندروفر ، وجلست جيل وسارة بجانبه . كانت هنالك مجموعة من الأشياء مبعثرة هنا وهناك في مؤخرة السيارة ذكرت سارة بأول يوم لها في الجزيرة . ولكنها لم تعباً بالفوضى هذا النهار . فعل الرغم من انه لم يمض على قدوم سارة الى الجزيرة الا بضعة اسابيع ، فقد بدأت تفقد شيئاً من حساسيتها للترتيب والتنسيق الصارم . ولدهشتها وجدت ان هيو ما زال يتذكر هذا اليوم ايضاً اذ علق مازحاً :
«بدت خيبة الأمل واضحة على قسماتك ذلك اليوم» .
وابتسم بشقاوة .

«لا عجب في ذلك! قالت جيل هابة للدفاع عنها . فهذه السيارة المعجوز تبدو دائماً مثقلة بالخرقة والروائح الكريهة . وهي طبعاً ليست مكاناً للشخص الأنوف» .

ضحكت سارة . وأحست بالانتعاش لأن مزاج جيل كان مرحاً هذا العصر . وقالت بسرور :
«اعتقد ان الخرقة مفيدة أحياناً» .

طوال الطريق الممتد على الشاطئ الغربي ، راحت جيل تثرثر بمرح عن لندن ، بينما جلست سارة في مقعدها مكتفية بالتطلع الى المناظر التي لا بد ان يكون مرافقها قد شاهدها مراراً .

وسرها ان تحمد ان هيو كان اكثر من ند لاخته ، وانه اظهر براعة في الرد على ملاحظات اخته الماكرة ، خالطاً اجوبته ببعض الملاحظات المنطقية بين

الحين والآخر. واكتشفت سارة انه على الرغم من تصرفاتها الطفولية، فإن جيل قادرة على التفكير بذكاء لماح اذا ما شعرت بالرغبة في ذلك. وتساءلت في نفسها فيما اذا كانت جيل قد فكرت في ان تدخل ميدان العمل يوماً ما. فإن اختيارها لمهنة مناسبة قد يساعد على تجنيد كل حيوياتها لاشباع ميولها بشكل اكثر فعالية. لعل جيل، مثلها، قد تمتعت دائماً بنوع من الحماية الأسرية التي عاقت نضجها، كما لمح هيو الليلة الماضية. انه من المؤسف انه لا يطبق نظريته بشأنها على اخته ايضاً. وشكت سارة في ان يصف هيو لاخته الدواء نفسه الذي وصفه لها.

بعد ليلة البارحة الممطرة، ثلاثت الغيوم من الغرب وبدت السماء صافية. وخلعت سارة معطفها لأن الحرارة أصبحت لا تطاق داخل السيارة التي راحت اشعة الشمس تضربها بسهامها. «من الأفضل ان لا تنسي معطفك عندما نترك السيارة. قال هيو ملقياً عليها نظرة سريعة وهي تحاول التحرك في المقعد المحشور. قد تحتاجين اليه فيما بعد».

«لن انساه». تمتعت قائلة وهي تستدير لتضع المعطف خلفها. احست سارة بالارتياح عندما عبروا قرية صغيرة، ومروا بحجر ضخيم قائم بين بيتين دفع هيو الى الافضاء بشرح قصير. قال انه في القرن الأخير جاء زوجان شابان ليقيضيا ليلة العرس في ذلك المكان. ولكن عاصفة شديدة هبت في تلك الليلة، فهبطت صخرة عظيمة من التلال فوق البيت بمن فيه. ارتعشت سارة عندما توقف هيو عن الكلام مفكراً. ولكن جيل هزت كتفيها، وقالت باستخفاف:

«ان هيو يمارس هوايته كالعادة، بحق السماء، لا تشجعيه يا سارة، والا كتب علينا ألا نرى ايونا هذا اليوم!».

فأجاب هو بجفاء من فوق رأس سارة ضاعطاً على البنزين:

«هل تعلمين كيف تبدين مشاعر الشفقة احياناً؟».

«ولكن ليس الهوس بالماضي».

«ان الزمن لا دخل له في الموضوع. فهذه القصة تعتبر مأساة في اي

«عصر».

تنشقت جيل قائلة:

«ولكنك ذكرت ان الزمن يساعد الانسان على التغلب على معظم الأشياء».

«بالضبط، ولكني لم اعن ان المرء ينسى بالمرء».

احست سارة وهي تصغي الى حوارهما، بأن لهذا الحوار صلة بمناقشة سابقة بينهما حول كولن. فشعرت بعضلاتها تنقلص خوفاً. ان المرء لا يعرف ماذا يتوقع من جيل ان تقول او تفعل. وعلى الرغم من انها قد وعدت بأن تسلك سلوكاً حسناً، فليس هناك ما يضمن انها ستفعل. لا شك انه من الصعب على جيل الغارقة في الحب ان تحاول اخفاء عواطفها على الدوام، ولكن الذنب ذنبها الى حد ما لأنها اختارت ان تخفي علاقتها بكولن، بدلاً من ان تحاول البحث عن حل للمشكلة.

وبينما راحا يتناقشان، احست سارة بوجود نوع من الرفقة الحميمة بينهما، مع شيء قليل من الفهم الصحيح. وغلبها الارتياح عندما حول هيو مجرى الحديث فجأة، وكأنه قد تعب من الخوض في الموضوع نفسه. اعجبت سارة بمناظر الطرف الجنوبي من جزيرة «مل» التي لاحت جبلياً وعرة. ولكن جيل نظرت بملل عندما حاولت سارة ان تلفت نظرها الى المنظر، ولم ترد.

«يجب ان تأتي يوماً لاستكشاف هذه المنطقة كما ينبغي».

قال هيو وقد سره اهتمام سارة، ولكنها تساءلت فيما اذا كان سيذكر وعده، ام سيكون مصير هذا الوعد مصير وعده السابق بالخروج لمراقبة الطيور. ارادت جيل ان يتوقفوا في قرية على الشاطئ، واحتجت عندما اصر هيو بأنه لا وقت لديهم، فشرح قائلاً:

«لقد وعدت ان اقابل جون فينلي في الساعة الثانية. ولا اريد ان اجبره على الانتظار».

نظرت جيل اليه غاضبة وقالت:

«لم تسأل بيت الخروج معنا اليوم؟».

واحست سارة بأن جيل ابدت هذه الملاحظة بغرض الانتقام من هيو واغافلته.

«لقد جاءت ملاحظتك متأخرة بعض الشيء. ولكن اذا ما اردت بعض الايضاح، فإنها مشغولة بالاستعداد للحفلة. وستأتي للعشاء هذه اللمسية».

احست سارة ببرودة مفاجئة، وقررت بابتئاس ان هيو لا بد ان يكون قد وجه الدعوة الى بيت عندما خرج ليودعها ليلة البارحة.

«هل سيأخذنا جون فينلي في قاربه كالعاده؟»

«انه يحتاج الى العبور هو شخصياً، ولهذا سيرافقنا».

سرحت عينا سارة الى الساعة الذهبية حول رصغ هيو القوي الاسمر، بينما راحت تفكر في السرعة اللاهثة التي غيرت بها جيل الموضوع عندما اشار هيو الى الحفلة. هل السبب هو ان جيل لا تريد ان تحضر الحفلة؟ وشعرت سارة بأنها هي ايضاً تود لو تستطيع تجنب اللحظة التي سيكشف هيو فيها انها ستحضر الحفلة مع ايان ماكنزي. لقد اتصل بها ايان مرة ثانية هذا الصباح، واضطرت الى قبول دعوته كارهة لأنها لم تستطيع ان تجد عذراً مناسباً تقدمه له. ووجدت سارة انها من بعض النواحي تتطلع الى حضور هذه الحفلة. ولم تستطيع ان تجد سبباً لتردها، الا اذا كان منبعه الخوف من ملاحظات هيو المبهمه.

في بلدة فيونفورت قابلوا جون فينلي: رجلاً اكبر سناً من هيو، اخذهم الى ايونا في قاربه الصغير.

همست جيل لسارة بينما كان الرجلان يتبادلان الحديث:

«انه كاتب من نوع ما، يكتب في حق الافلام الوثائقية وتواريخ الحياة هذا النوع من الكتابات التي لا تدر عليه ربحاً كبيراً. وقد استأجر كوخاً صغيراً، كما فعل كولن، اول ما قدم الى هنا. ثم ابتاع بيتاً متداعياً. وصادف ان كان هيو هنا في ذلك الوقت فساعد على تحويل البناء الى مكان يصلح للسكن. ولهذا كلما عزمنا على الذهاب في رحلة بصر على تقديم خدماته. لا تدعي هيو يعرف ما قلته لك لانه لا يحبني ان اتكلم في هذا الموضوع».

«فهمت...»

كان المضييق ضيقاً، ولما عبره القارب اجتاز المسافة القصيرة نحو المرسى وتوقف. وساعد هيو سارة على مغادرة القارب المتأرجح بنظرة ودية من عينيه.

ولما فارقوا المرسى ساروا عبر القرية الى الكاتدرائية. بدت القرية هادئة لان معظم زائريها اليوميين قد غادروها. سار هيو بقماته الفارعة وراء الفتاتين لاننا انتباههما الى المعالم الهامة، شارحاً لهما بعض المعلومات التاريخية.

لم تستطع سارة ان تستوعب كل ما سمعت. فابتسمت مقلصة وجهها، وعيناها تومضان، وقالت:

«لن اتذكر نصف ما قلته لنا. اخشى ان اضطر الى شراء دليل سياحي».

«بإمكانك ان تفعل ذلك بالطبع. الا انك ستجدين كثيراً من الكتب الجذابة والمشوقة حول ايونا في مكتبة لوخ غويل».

اخذت جيل تلتكاً في الخلف. وبدا عليها الضجر التام. وقالت متشكية عندما سألتها سارة عما الم بها:

«لقد اتيت الى هنا مراراً في السابق».

«مرة واحدة».

اجاب هيو رافعاً وجهه العابس بصبر نافذ قبل ان تستطيع سارة ان ترد. «ثم انك قد تأتين الى هنا مئات المرات، ومع ذلك تكتشفين ناحية لم تعرفي عنها شيئاً من قبل».

«ولكن كل شيء هنا قديم جداً! احتجت جيل غاضبة. وأنت تعرف بانني لم اهتم مطلقاً بالتاريخ في المدرسة او خارجها. نخذ هذا المدفن مثلاً...»

وأشارت بيد أمرة الى مقبرة اوران. عندما كان عمي ديفيد حياً كان لا يمل او يتعب من ترديد هذه المعلومات وغيرها على مسمعي عندما كنت طفلة. وهذا ما يجعلني اتذكرها جيداً. ان عقلي يوشك على الانفجار عندما افكر في هذا الموضوع».

كان تعبير جيل مضحكاً الى الحد الذي كاد يدفع هيو الى الابتسام رغماً عنه. ولم تدهش سارة عندما اعلنت جيل بعد ذلك بأنها تفضل ان تذهب الى الفندق لكي تجد شخصاً تتحدث اليه.

«سأراك هنا».

هتفت وهي تلوح لهما بلا اكتراث، مبتعدة.

شرح هيو لسارة بأن جون فينلي ينوي قضاء العصر مع صديق جاء

ليعيش على الجزيرة قبل مدة قصيرة. وسارا معاً باتجاه الكاتدرائية في الشارع الذي كانت تسير فيه مراكب جنازات الملوك والزعماء قبل ان تحمل جثثهم الى مقرها الأخير.

بهت سارة بروعة الكاتدرائية وتسارعت نبضاتها. فهي على عكس جيل، تستجيب على الدوام الجمال الأبنية القديمة وللأجواء التي تعشش فيها. ولهذا فإن نظرتها الأولى للكاتدرائية التي انحدرت فوقها أشعة الشمس مؤلفة احجارها الغرائبية الوردية جعلتها تسمر في ارضها اسيرة لكل هذا البهاء.

«منظرها يستحوذ على النفس، اليس كذلك؟».

فأجابته بهزة صامتة من رأسها وابتسامة خفيفة. فأخذ ذراعها وقادها الى الامام. وقد علا التفكير وجهه الأسمر.

«لم ار لها مثيلاً من قبل».

دخلوا البناء من البوابة الرئيسية التي ذكر لها هيو بأن تاريخ بنائها يرجع الى عام الف وخمسة مئلاية. وتمهلت قرب منحوت من الحجر، زين بنقوش محفورة تشرح قصصاً دينية قديمة.

وقادها من مكان الى آخر. وعندما وصلا الى الجدار الشرقي النورماندي لفت نظرها الى لوحة زيتية شهيرة. وعلى الرغم من ان الاضاءة كانت خافتة في الجناح الشمالي من الكاتدرائية الا انها لم تستطع ان تخفي جمال اللوحة. وانتقلت افكارها ببطء الى كولن. وشعرت انه من المؤسف الا يكون هنا هذا العصر. فهذه اللوحة الرائعة، والكاتدرائية، وكل ما يحويه المكان لا بد انها كانت تستثير حماسه الفنية.

لاحظ هيو فوراً التبدل الذي اعتراها، فسأل:

«ماذا يزعجك يا سارة؟».

واستقرت نظراته عليها بشيء من السخريّة. وأحست سارة بأنه يغزو احساسها. فسارعت الى دفعه عنها.

«لا شيء...».

قالت متجنبة بمهارة ان ترد على سؤاله. وازاحت شعرها عن جبينها، ثم تركت اللوحة وسارت عبر الباب الشمالي الى الرواق الخارجي. ثم توقفت امام تمثال جميل وقد دامها شعور بالحماقة. ولاحظت ان التمثال صنع عام

الف وتسعمئة وتسعة وخمسين. ثم شعرت بهيو يقترب منها.

«من المؤسف انك لا تهدين القدرة على الافضاء بما يزعجك يا سارة. هل ابدو لك وحشاً مربعاً؟».

«طبعاً لا. وحشت نفسها على بذل مزيد من الجهد. انك لطيف جداً هذا العصر».

«اسلوب ممتاز في الكلام. ولكنني اعتقد، لا اعرف كيف بأن هنالك شيئاً يسبب لك الازعاج، يا صغيرتي الجبابة».

وقفت سارة تحدق فيه، والنور والظل يتلاعبان فوقها، وجسمها المشدود يحلر يتأرجح على حافة الهروب. بعد لحظة صمت قال باكفهرار:

«وبما انه يبدو انك فقدت لسانك، وانني قد افرغت جعبتي من المعلومات، فإنه من الخير ان نذهب للبحث عن جيل فهي على الأقل تملك ذخيرة لا تفيض من الكلمات».

ظلت سارة على صمتها. وراحت تنتظر ان يتلاشى اضطرابها. وغادرت الكاتدرائية على مضض مع هيو. وسارا باتجاه فندق القرية.

«في كل حال، اعتقد انك رأيت بما فيه الكفاية اليوم. واذا ما حاولت ان ترى المزيد فقد تصابين بسوء هضم ذهني. ثم انه بوسعنا ان نعود الى هذا المكان اذا ما رغبتا».

بعد ان فرغوا من تناول الشاي، اقترح هيو ان يذهبا في جولة صغيرة بمحاذاة الشاطئ الى الخليج، حتى يحين موعد عودة جون فينلي.

ولكن جيل تدرعت بالتعب. وابدت الرغبة في ان تظل في الفندق من اجل ان تتحدث الى بعض الطلاب الذين كانوا يقيمون في الفندق. فوافق هيو على طلبها متذكراً عمليتها.

سارت سارة برفقة هيو بمفردها. ورغبت ان ترى كل ما يمكن ان تراه من ابونا في الساعة المتبقية لها لأنها ظنت انه من الحماقة ان تضيع مثل هذه الفرصة، حتى ولو كان هذا يعني ان تتيج هيو ان يشاكسها كلما قالت او فعلت شيئاً غيبياً. يجب ان تتعلم كي تتجنبه.

كان الطريق باتجاه الجنوب يسير بمحاذاة شاطئ رملي. ولكنه انتهى قبل ان يصلوا الى الخليج، فسارا على الرمال عدة امتار لأن المد كان قد انحسر كاشفاً جزءاً من الشاطئ.

كان الخليج صغيراً وجميلاً جداً، إذ انحدرت الصخور المطلة عليه في تدرجات عريضة تغطيها شجيرات اللبلاب. وكانت قمم الصخور مكسوة بأعشاب الخللج التي ترتدي حلة من الزهور الوردية في الفصل المقبل. وبدت البقعة مهجورة مما أثار دهشة سارة، فقد ظنت انها سيلتقيان ببعض السياح هنا.

وانعطف الخليج متغلغلاً في البر، بينما راحت الرمال البيضاء تتألق قرب الصخور التي كستها الطحالب الفضية. وفاضت البرك الصغيرة التي خلفتها الأمواج بمختلف أنواع الأعشاب البحرية الرقيقة المتعددة الألوان. وامتدت امامها، مطلة بعظمة، جبال «مل» بقممها الغارقة في رماد الغيوم. وكان الهواء نقياً عالياً. وبدا كأن الألوان في ايونا تنصف بنوع من الصفاء الغريب الذي يأمر الحواس.

ركعت سارة على الرمال لتخلع حذاءها. وقد نسيت وجود هيو للمحظة. ثم ثنت نهايتي بنظلوها. وفجأة شدها هيو بسرعة وصمت الى ظل صخرة مجاورة، فكادت ان تفقد توازنها، ومدت يدها بحركة مرتعشة لكي تمنع نفسها من الوقوع.

«إذا ما انتظرت هنا قليلاً. قبل ان تسرعني في الغوص في البرك، فإننا قد نرى بعض الطيور قانصة المحار. لقد وعدت ان أخذك لمراقبة الطيور، اليس كذلك؟»

على الرغم من حرارة الجو ويوم حافل بالمغامرات شعرت سارة بموجة من الاثارة لم تقمعهارثة المزاج في صوت هيو، والوميض الساخر في عينيه. اذا كان يظن ان قضاء نصف ساعة على شاطئ «مل» كفيلاً بأن يخلصه من الوفاء بوعده لها بمرافقتها لمراقبة الطيور. حسناً! ومن هي لتناقشه في قراره؟ عاد ذهن سارة الى كولن براون لأنها شعرت بأن الجزيرة بمنظرها وطيورها لا بد ان تشكل موضوعاً مفيداً له.

«انظري!»

ولكنها هيو بلطف مشيراً الى بعض الطيور قانصة المحار التي استقرت على الشاطئ قربها.

«لعل هذه الطيور تبحث عن سرطان البحر. اذا ما جلست دون حركة، فلعلنا نرى احدها يمسك بالسرطان.

حاولت سارة ان تفعل ما اقترحه عليها. ولكن ضيق المكان ازعجها. إذ وجدت نفسيهما في شق عميق بين الصخور. وكادت اكتافهما تتلاصق. وشعرت بالرمال تتسرب من خلال اصابع قدميها، مما أثار في نفسها شعوراً حسيماً غريباً. فتسارعت ضربات قلبها مما جعلها تخشى ان يلاحظ هيو هذا الوجيب. فادارت رأسها نحو الشاطئ، وافلتت منها تنهيدة خافتة.

كانت الطيور التي رأتها كبيرة، بيضاء وسوداء، ولها مناقير برتقالية لتساعد منها بين الحين والآخر صيحات حادة وغريبة، سرعان ما تنقلب الى نغمات مزمارية مجنونة كلما احتاجت الطيور او اضطربت. وراحت هذه الطيور الصاخبة التي بدت اليقة نوعاً ما تحفر حفراً في البرك الصغيرة، التي خلفتها مياه البحر، بمناقيرها الطويلة بين الطحالب البحرية. وصادف الحظ بعضها، وامسك أحدها بسرطان كبير ولكن سرعان ما فقد فريسته عندما انقض عليه طائر نورس كبير، واختطفها منه.

«لكن الغنيمة من نصيب الرجل الأفضل».

«اليس هذه هي الحالة دائماً؟»

ردت سارة بتمهل وهي تبحث عن صندوقها، وقد اخذ اهتمامها بالطيور، وحتى بالبحر ينحسر إذ احست بأن الوقت قد حان للعودة. «يسعدني ان اعتقد ذلك».

واتكأ على الصخور خلفه بارتخاء، ساداً طريق الهرب امامها. ولم يبد عليه انه كان على عجل.

«ولكن هذا لا يحدث دائماً. خصوصاً فيما يتعلق بالنساء، اللواتي اجدهن مخلوقات مشاكسة عنيدة. وهن احياناً يقعن في هوى الرجل حباً في نقائسه وضعفه. مما يجعلهن يتعامين عن حاجته الى خصال اكثر صرامة».

نظرت سارة اليه بسرعة. هل يشير الى انسان معين بالذات؟ وقالت باحتراس:

«قد تكون على حق».

وانحنت الى الامام عابئة بالرمال بين اصابعها النحيلة. واخفى شعرها المهدل على جبينها تعابيرها. لن تناقش. لأنها لا تريد ان ينتهي هذا اليوم المثالي بنغمة ناشزة. وثبتت صحة حدس سارة عندما سأل هيو فجأة: «هل تظنين بأن جيل ما زالت تصبو الى صديقها الفنان؟»

فقلت بسرعة:

«من المحتمل انها ما تزال. بل اعتقد انه اكثر من احتمال».

«الم تسر لك بشيء؟»

«لماذا لا تسألها بنفسك، يا هيو؟»

ارتفع حاجباه الداكنان اذ قال:

«انك تتعمدين المراوغة والتملص».

فلدغتها كلماته. وشعرت بأنه ليس هنالك أمل في ان تستطيع اخفاء

الحقيقة.

«سارة!»

رفعت رأسها متفضة اذ خرقت مسمعها صرخته القصيرة. كان وجهه قريباً جداً منها، حتى انها استطاعت ان تبين الخطوط الحادة حول فمه قبل ان تلتقي عيناها مباشرة بعينه.

«هيو... عندما ترجع والدة جيل الن تعيد النظر بالموضوع، وتوافق على مقابلة هذا الرجل؟ لا بد انه يملك بعض الصفات الحسنة».

استراحت نظراته على ذراعها العارية. وامتدت يده الى يدها، وفك اصابعها المتقلصة برقة، واحداً فواحداً. فأفزعتها لمسته ووخزتها كالابر، قال بعدوية وعيناه تستقران ثانية على وجهها المصفر:

«هل تعتقدين بأنني يجب ان افعل يا سارة؟»

«لا اظن بأنك ستندم على مثل هذه الخطوة».

وحمل صوتها رنة اسي خفيفة.

«هذا نفاذ عظيم! قال بسخرية رقيقة. لكن من اجلك يا سارة قد أقدم على هذه الخطوة».

اضاء وجهها فجأة عاكساً الدفء الداخلي الذي غمر جسمها. ولكنها هزت رأسها قائلة:

«ان ما تفعله، يا هيو، يجب ان يكون من اجل جيل لا من اجلي، فالمشكلة هي مشكلتها لا مشكلتي».

«ولكنك قد نجابهين مشكلة خاصة بك بأسرع مما تتوقعين».

تناهت اليها كلماته متكاسلة غامضة. ومد رجله بخفة بجانبها. وراح يلف خصلة من شعرها الطويل حول اصبعه. وقفز قلبها بتعاسة عندما

حطت نظراته عليها. لن تستطيع الافلات منه الا اذا اطلق سراحها. وشعرت انه من الغباء ان تتوسل اليه ليفعل ذلك. ماذا عني بكلماته الأخيرة؟ وفاضت فيها التساؤلات. لقد عانت من قسوته من قبل. كيف سيتصرف لو عرف بأن كولن يعيش هنا، وانها قد علمت بالأمور؟ لا، لا يمكنها ان تفكر بما سيحدث. وقالت سارة محاولة ان تتخلص من تعذيب اعصابها المرهقة:

«ان جيل لا تفهم لماذا ذهبت والدتها الى اميركا من دونها»

«من الأفضل الا تفهم».

«في كلماتك نذير».

وندمت سارة على جملتها المتسربة. سيظن بأنها تحاول ان تسير غوره. ابتسم هيو فجأة. وشد خصلة من شعرها حول اصبعه بحركة قاسية متعمدة. وراقبها تحفل، فقال بنعومة:

«الحقيقة...؟ اظن ان جيل قد طلبت منك ان تحمي نبضي، ايتها الاعجوبة الصغيرة. حسناً! قولي لها بأنني رفضت ان اتكلم، ودعينا نرى ماذا تفهم من ذلك».

اشتعل جلد سارة انفعالاً وغضباً يائساً:

«ولم الظهور بمظهر المنافق؟»

«انا لست منافقاً فيما يتعلق بك. في ظروف غير هذه كان من المحتمل ان استجيب لاغراء جمالك. فما انا الا بشر».

«لا تبدو واثقاً بما تقول».

«طوال حياتي... كان من عادي ان اتصرف بسرعة. ولكن الرجل يجب ان يتمهل احياناً. ان مظهرك البريء يجبر المرء على كبح نفسه. ولكن هذا المظهر قد يكون خداعاً».

شهقت سارة وقد كاد الغضب يخنقها. ورفعت يدها التي لمست خده المشدود في محاولة للتخلص منه فوق الرمال. ولكنه كان اسرع مما توقعت. ووثب كالفهد وامسك بها قبل ان يقعا معاً على الشاطئ.

لم تحمد سارة متسعاً من الوقت لالتقاط انفاسها. وتحركت يداها نحو صدره لكي تدفعه بعيداً عنها. ولم تستطع ان تتحرك تحت وطأة عناقه القوي. واحست بضربات قلبه وشعرت بدمايتها تتأجج وهي تمنى ان

تستمر هذه اللحظة الى الابد.

قد تكون هناك اشكال اخرى للتعذيب. لكن لا يوجد ما يوازي هذا الشكل عمقاً واكتساحاً. كان الهواء يمور بصيحات الطيور واغانيها، ولكن سارة لم تبال. وتباطأت الثواني ثم طالت. واخيراً رفع رأسه الداكن، وراح يحدق في وجهها المورد.

وفجأة جرت نفسها بعيداً عنه، وهي غير قادرة على التفكير بسبب الفوضى التي غمرت ذهنها.

وارتحف صوتها وهي تنظر اليه باحتياج قائلة:

«هل هذه هي طريقتك في التأديب؟»

راحت عيناه مخومان حول عينيها الزرقاوين بأهدابها الكثيفة واللتين ما تزالان طاغيتين بالعواطف. ثم قال بسخرية متعمدة:

«لم اجد طريقة اكثر سحراً وجاذبية».

تراجعت سارة الى الخلف بحركة احتجاج لا ارادية.

«لم استسغ ما حدث».

ردت سارة بعنف، اذ راحت عيناه ترمقانه، وقد لاح فيها وميض من التهديد. ثم قال بصوت ناعم:

«يلوح لي انك انت المناقفة الآن او... الا تعرفين؟»

«لقد نصحتني بأن ابحث عن علاقة رومانتيكية».

«لن تجدي مثل هذه التجربة مع ايان ماكنتري».

«ماذا تعني؟»

قال هيو هازناً لاوياً شفثيه:

«هل تريدني ان افسر؟»

«لا... انا...»

وارتعشت شفتا سارة حتى لم تعد قادرة ان تجبر نفسها على الكلام. وكرّهت ان ترى القناع يزاح عن عواطفها فتعري امام عينيها. وحدثت في وجه هيو الأسمر الوسيم. وشعرت بتأثيره عليها. لأن جزءاً من ذاتها راح يستجيب بطريقة لا قدرة لها على التنبؤ بها، لشخصيته المسيطرة. اذا لم تقاومه فسيخضعها تماماً ويسحقها. وشعرت بالخوف يكتسحها. فقالت، ناثرة شعرها الى الوراء بأصابع مرتجفة:

«من الأفضل ان نذهب».

فرد قائلاً وعيناه تحدقان فيها بوحشية:

«الم يضمك احد من قبل. او هل ستحاولين ان تنكري ذلك؟»

وانتصب رأسه فجأة.

«اعتقد بأنني اكرهك».

ردت سارة وهي موقنة ان الحقيقة هي العكس، محاولة ان تتجاهل الألم الذي راح يمزق احشاءها.

«هذا ما تصرين على ادعائه. ولكني اظن بأنك تعرفين بان هذه ليست هي الحقيقة. وانا استطيع ان ابرهن لك على ذلك. في الحقيقة قد تستمتعين بالتجربة. انا اضمن لك هذا. ولكنك لست من النوع الذي اعتدت عليه».

«لا يبدو ان هذا قد شكل لك عائقاً حتى الآن. ولكنني بالتأكيد، لست واحدة من نساءك المتوحشات، ساكنات الغابات الاستوائية او الصحاري».

شعرت سارة بأن غضبها قد اعانها على استعادة بعض غمالكها لنفسها وساعد على ابطاء ضربات قلبها. ولاحظت وميض التسلية في عينيها وهما تستقران على العرق الذي راح يتفusus في اسفل عنقها.

«في غابة لن يردعني شيء عن التصرف تجاهك كما اريد. كم اتمنى ان اعثر عليك في غابة يا سارة! لانك لن تستطيعي الافلات مني هناك».

ادركت سارة بأنه كان يهزأ منها، ضاحكاً. ولكن عينيها راحتا تومضان بنور رمادي كالفلواذ.

واحست بضعفها المخجل وهي تحدق فيه كالماخوذة.

لقد اعترفت مسبقاً بأنها ليست ندا له من حيث البراعة اللفظية، وتضاءل بصيص الأمل في ان تستطيع مناوخته والانتصار عليه

بوسيلة اخرى، ثم تلاشى من نفسها تماماً. وعرفت انه من الحماسة ان تحاول المستحيل.

فهزت رأسها غير قادرة على الكلام. اما هيو فقد انتصب على قدميه،

قافراً بخفة لا تتفق مع حجمه وطوله.

«من الأفضل ان نذهب من هنا».

قال هيو كمن صحا فجأة، وقد فارقت روح السخرية. ورفعها نحوه

بحركة بارعة في دققة واحدة، فألت أصابعه عظام رسغها.
«لن اكون مسؤولاً عما يحدث لو بقينا هنا وانت تبدين على هذه الصورة، بشعرك المحلول وقدميك العاريتين».
أفلت هيو ذراعها وقد راحت تحديق فيه بعينين واسعتين تطلان من وجهها الشاحب، محاولة ان تسيطر على الشعور الغريب الذي غمر نفسها. وانحنت بحركة آلية لتلتقط صندلها. واحست بغثيان خفيف بسبب الشعور بالملذلة الذي اجتاحتها والذي لم تستطع له تفسيراً. وتمنت لو تستطيع الهرب منه. وقالت بصوت خال من التعبير:
«لا تقلق، فإن هذا لن يحدث ثانية».

عادوا الى لوح غويل ليجدوا القوضى قد استببت في القلعة ذلك المساء. وكان السبب هو ان بيدي، بعد مناقشة طويلة أعلنت انها لزمّت الفراش ما فيه الكفاية، وان الوقت قد حان لكي تنهض من فراشها وتتولى اعداد العشاء. فاعتري الفزع كاتي التي سارعت الى اخبار الدكتور ماكنزي بالهاتف. ووصل الطبيب في اللحظة التي وصلت فيها بيت. ولما كان ماكنزي في القلعة عند عودتهم من ايونا، فقد اضطر هيو الى دعوته لتناول العشاء معهم. وقبل ماكنزي الدعوة بسرعة غير عادية، خالية من الخجل.
«يظهر انه يريد ان يراقب مريضتنا المقعدة».
تمتم هيو بجفاء هامساً في اذن سارة، وهو يجلسون على كراسيهم حول المائدة.

اجفلت سارة متجاهلة هجومه اذ ازاح لها الكرسي لكي تجلس. الا يفوته شيء؟ ان عيني ايان لن تفارقا وجهها منذ ان هبطت الدرج قبل خمس دقائق. وكان من المفروض ان يجلس بجانبها، ولكن هيو سبقه ببراعة وتعمد كما ظنت سارة.

«اعتقد ان بيدي تستطيع الآن مزاوله عملها؟».
سأل هيو مخاطباً الطبيب بصوت لاذع، وهو يأخذ مكانه بين جيل وبيت التي بدت جذابة جداً في ثوب اسود انيق.
«اشاركك الرأي. كان من الأفضل ان تبقى في السرير مدة اطول. ولكن المرء لا يستطيع ان يأتي بالمعجزات. لقد كانت الأعجوبة ان تنجح سارة في ابقائها في السرير مدة اسبوع. وعدتني بيدي الا تتعب نفسها».

«انها لا تطبق فكرة وجود اي شخص اخر في مطبخها. ردت بيت بحبوية. ولهذا حاول ان تداريها، يا عزيزي هيو».
«اذا ما فكر هيو بالزواج والاستقرار فقد تستطيع زوجته ان تبقي بيدي في مكانها. قالت جيل بجرأة كبيرة ووجهها يفيض بالاستياء. لا استطيع انا شخصياً ان اتصرف تجاه نزوات بيدي ومزاجها».
«قد تثبت زوجتي المقبلة انها اسوأ منك في هذا المجال».
قال هيو مداعباً جيل بكياسة، ناظراً اليها بابتسام، وهو يملأ كأس ايان «لا اصدق ذلك». ضحكت جيل وهي تتناول ملعقة الحساء. ماما تقول... بأنه على الرغم من كونك رجلاً فإنك مستنقي جيداً ساعة الاختيار».

احست سارة بشعور خفيف بالمرض، وراحت تلتقط الطعام من طبقها النقاط، غير راغبة برفع رأسها الذي اخذ يدور. كان شعورها بوجود هيو بجانبها طاغياً. وراح يلهمها عما حولها بمغناطيسيته الغريبة التي وجدت نفسها غير قادرة على مقاومتها.
وفسرت سارة شعور الأسى والكآبة التي اعترتها بتعبها والاثارة العاطفية التي عانت منها هذا العصر. وكان الاحساس بالبحر والسماء وقتنة تألّقت اشعة الشمس فوق المياه ما يزال معها، معمقاً في نفسها الشعور بحقيقة تلك اللحظة المؤلمة.

واعترها احساس بالارتياح عندما اخذت بيت تتحدث الى جيل بوجه عابس عن ايونا ملقية عليها سيلاً من الاسئلة عن رحلتهم وكيف قضوها. اتكأ ايان باحتراس الى الامام، وقال لسارة وعيناه تعكسان عتاباً خفيفاً:
«لو عرفت بأنك راغبة بالذهاب الى ايونا لسرتي ان اصطحبك. في الحقيقة، سأذهب الى ايونا في الاسبوع المقبل من اجل زيارة مريض. هل تحبين ان تأتي معي؟».
«آه، آسفة...».

حدثت سارة فيه مترددة. لم يستطع اي شيء منذ عودتهم ان يتتزع من ذهنها سحر ايونا. ولكنها، وهي تسترجع ما حدث، اجبرت نفسها على التركيز على الكاتدرائية بدلاً من شاطئ البحر. انها لن تطبق العودة الى ايونا، ليس الآن على الأقل. ولكن كيف تستطيع ان ترفض؟ فقد

اكتشفت، رغم قصر تعارفهما، بأن ايان قادر على ابداء الكثير من العناد والمشاكسة اذا ما رغب.

سارع هيو الى القول بحزم، بينما كانت لا تزال تفكر:
«ان سارة فتاة عاملة يا ايان. لا اظن انني استطيع الاستغناء عنها. ليس وضغط العمل كما هو عليه هنا. اليوم كان حالة استثنائية. لقد اردت ان ارى جون فينلي، وظننت بأن التغير قد يفيد جيل».

«وانا اريدها ان تخصص يوماً من اجلي. تدخلت جيل قائلة قبل ان يجد ايان فرصة للاعتراض. ارجب في ان نذهب معاً الى اويان لانني اريد ان اشترى ثوباً للحفلة. فليس عندي فستان واحد مناسب».

تململ هيو بغضب بجانبها، وقال:
«لماذا، بحق السماء، لم تجلبني فستاناً معك يا جيل؟ كان يجب ان تعرفي بأنك قد محتاجين اليه».

ابتسمت جيل ابتسامة عذبة لاختيها، ورمقته بعينين واسعتين برييتين.
«كان السبب هو عمليتي، يا عزيزي هيو، لقد منعتني المرض من مجرد التفكير بالحفلات والرقص. ولهذا ارجو الا تبخل علي بسارة. انا واثقة انك تستطيع الاستغناء عنها لمدة عدة ساعات. الا توافق يا ايان؟»
وأدارت وجهها المتوسل الى الطبيب.

هز ايان رأسه بالانجاب، متحالفاً معها، وقد عاد اليه مزاجه اللطيف.
«في كل حال، سأرافق سارة الى الحفلة الراقصة. لا تستطيع ان تجبرها على العمل خلال الحفلة، يا صديقي العجوز».

قهقه الجميع، اما سارة فقد وجدت من الصعوبة حتى ان تبسم.
وتحولت عيناها رغماً عنها الى هيو. ولاحظت بخوف فجائي عصبي ان فمه كان مضموماً بشدة. وومضت عيناها وهو ينظر الى الرجل الجالس مقابله. ولكنه قال باهمال دون ان تبدو عليه امارات الغضب:

«اقول في صلاتك انك رجل لا يضيع الوقت. الا اذا... اضاف بلهجة معسولة. كنت جسوراً بعض الشيء».

تحركت سارة على كرسيها بقلق، واصابعها الملفوفة حول كأسها مشدودة من التوتر. وادار هيو رأسه فقابلت عيناها نظرتة. وأدركت انه عليها ان تقول شيئاً، ولكنها لم تدر كيف تجيب، فهزت كتفيها بحركة عاجزة.

«لقد اتخذت قراري صباح البارحة فقط. اعترفت بتعاسة وهي تنظر بانجها بيت. لقد سألتني الأنسة اسكويث ان احضر الحفلة قبل يومين، ولم اعتقد بأنك ستمانع».

«يبدو ان هيو يتخيل بأنني سأهرب معك».
قال ايان ضاحكاً ووجهه اللطيف يشرق بالابتسام. وبدأ من الواضح انه لم يكن على علم بالتيارات الخفية وراء الكلمات. وتمهلت نظراته بحماس على وجه سارة المورد.

«لم تتح لي الفرصة لحضور الحفلة منذ سنوات، بسبب طبيعة عملي. ولكن لن يحول بيني وبين حضورها هذه المرة الا كارثة او ما يشابهها».
بعد ذلك اخذ الحديث مجرى اكثر طبيعية. ولكن ايان، قبل ان يقادر القلعة، وبينما كانت سارة تستطلع رأيه الأخير بشأن بيدي، توسل اليها ثانية بالا تنسى بانها قد وعدت بالذهاب معه الى الحفلة.

«ليس لأن الحفلة مهمة يا سارة. انت تدركين هذا بالطبع. ولاحق في عينيه اللطيفتين فجأة نظرة حادة. ولكنني لم اقابل فتاة مثلك من قبل. ويخيل الي بانني قد بدأت اقع في حبك».

«اه، من فضلك، يا ايان... وحدثت فيه محفلة. لا يمكن ان تكون جاداً اذ انك لم تتعرف علي الا منذ ايام فقط».

واعترت سارة حالة من الاضطراب التي أفلحت، بالاضافة الى تعبها، في تمزيق اعصابها. وبدأ ايان جاداً تماماً وكأنه يصدق ما يقول. لو انها لم تكن تعاني من الاحساس بوجود رجل آخر لكانت الأمور، دون شك، مختلفة. واجتاحتها موجة من اليأس مشتتة قدرتها على التفكير المنطقي. ولم يسعها الا ان تحلق في وجه ايان دون ان تنبس ببنت شفة. ولكن قبل ان تستطيع قول اي شيء اخر، التفت ايان قبعته القديمة، مبسماً ابتسامة حزينة، وكأنه قد خزن بعض ما كان يحول في نفسها.

«لا تهتمي يا سارة. نامي على الفكرة بهدوء هذه الليلة. ولا تدعيها لزعجك».

ثم ودعها بلمسة رقيقة من يده، وتركها واقفة شاخصة في الفضاء وراءه.

لقد كان يوماً حافلاً بلا شك!

٨ - عواطف متفجرة

قررت جيل الا تذهب الى اويان لشراء فستان جديد. واعترفت لسارة بأن الفكرة ولّدها في نفسها دافع عنيد لقضاء يوم بأكمله مع كولن الذي كان من المنتظر ان يرافقها. ولكنها بعد تفكير عميق، قررت بأنه ليس هنالك ما يدعو الى الاقدام على هذه الخطوة الخطيرة.

«قد يكشف هيو الحقيقة بسهولة. او قد يصير على القدوم بنفسه خوفاً من ان اتعرض لنكسة. وانت تعرفين هيو. احياناً يخيل الي ان له عينين في مؤخرة رأسه».

استجابت سارة للملاحظة جيل بابتسامة متقلصة. ولم تكن تشعر مطلقاً بالرغبة في الذهاب لشراء ثوب برفقة جيل. كما انه لم تكن لديها رغبة حقيقية بترك لوخ غويل حتى ولو ليوم واحد. ولهذا فقد داخلها ارتياح كبير عندما غيرت جيل رأيها.

تحركت جيل متململة عندما لم ترد عليها سارة. وكانت لا تحب الصمت من اي نوع. وراحت عيناها تتجولان بتفكير فوق وجه سارة.

«سمعت هيو يقول ليث الليلة الماضية بأنه قد يذهب الى لندن ثانية في الاسبوع القادم. قد اذهب معه لقضاء يومين او ثلاثة اذا قبل باصطحابي. ان كولن مشغول جداً، وعليه ان ينجز بعض المهام المتأخرة. ولا شك انه سيغتاظ مني لو اعقته عن العمل. ولكن اذا ما ذهبت مع هيو فإن هذا سيعطيه الفرصة لينسى وجودي حتى اعود».

ادارت سارة رأسها ببطء وحدقت فيها وقد انتزعتها كلماتها من خمولها.

«ان السيد فريزر لم يذكر لي انه سيذهب الى لندن بينما كنا منهمكين في

العمل هذا الصباح».

«لعله لم يفكر بالأمر. فهو مشغول جداً طوال الوقت بالجري وراء بيت. لا اعرف لماذا اسمح لنفسي بتحمل كل هذا القلق من اجل اخفاء كولن عن الانظار. ان هيو لن يلاحظ ولو جلسنا انا وكولن فوق قمة جبل بن مور».

«لقد ذكرت قبل لحظة بأنه لا يفوته شيء، حتى ولا كلمة».

«هل يجب ان تأخذي كلامي دائماً على محمل الجد؟ انما انا احاول ان المح الى ان الحب احياناً يعمي الناس. يبدو لي انه من المؤكد تقريباً انه سيعلم خطوته في الحفلة».

«تعنين خطوته الى بيت؟».

«وحاولت سارة ان تبسم، ولكن شفيتها لم تفلح الا في الانفراج بالأم. ومن غيرها؟ لقد راقبتها جيداً. وانا واثقة من ان هنالك علامات».

«علامات؟».

«ان المرء لا يحتاج الى رؤية حادة او قدرة على قراءة المستقبل لكي يرى ما يحدث. لقد وضعت اثنين واثنين معاً: ان هيو يفكر بالبقاء في لوخ غويل كما سبق أن ذكرت لك. لقد اكتشفت ان لديه خطة لابتداء مشروع بترية الخيول وتوليدها. فهو كان دائماً مغرم بالخيول. اعتقد انه يفكر ايضاً ببناء بعض الأكواخ والبيوت في ممتلكات القلعة لأن عدداً من الأكواخ القديمة قد بدأ يتداعى الى حد لا يمكن معه ترميمها. ولهذا، اذا ما اخذنا بالاعتبار كل شيء، فلا بد ان تكون بيت في منتهى السرور الآن».

«منتهى السرور؟ ماذا تعنين بقولك هذا؟ قد تكونين مخطئة. قد يكون هيو قرر ان يترك لوخ غويل نهائياً. ويبيع املاكه هنا بعد ان ينسق امورها. ثم ان بيت قد لا ترغب في العيش هنا مطلقاً».

«اعتقد انك انت المخطئة. في كل حال، ان الوقت سيحكم بيننا. وبالنسبة... استطردت جيل قائلة وهي تنقل نظراتها الحادة الساخرة من البركة الى وجه سارة فلماذا تكثرين من استعمال «السيد فريزر» هذا العصر. البارحة بعد عودتنا من ايونا كنت تستعملين «هيو» فقط. في الحقيقة لو لم تكن بيت في المنظر، ولو كنت فتاة اخرى غير سكرتيرته، لظننت بأن هيو قد افتتن بك يا سارة العزيزة».

«لا تكوني غليظة! احياناً، انا انادي السيد فريزر باسمه، هيو».

وقفزت سارة على قدميها مرتبكة وقد اشتعل خدوها احمراراً. ان جيل لا
تحتمل! وتحركت متململة وقد اعترها دافع فجائي غامر بأن تذهب الى
مكان ما. كان الجلوس في الحديقة ممتعاً، لكنها احست بأنها لا تستطيع
البقاء في مكانها مدة اطول، نهياً للشكوك إثر ما قالته لها جيل.

«هل لديك مانع من السماح لي باستعارة سيارتك لمدة ساعة او
ساعتين؟ احس بالرغبة في ان اذهب للمشي، ربما باتجاه جبل بن مور. لقد
امضيت طوال العصر في الكوخ بصحبة غوين. ولهذا فأنا ارغب باستنشاق
بعض الهواء النقي. ارجوك ان تطلي من بيدي الا تحتفظ لي بأي طعام.
سأتناول عشاء خفيفاً عندما اعود».

«حسناً يا عزيزتي! ولكنني لا اعرف من سيزعجك لو بقيت هنا. فأنا
سأخذ حماماً طويلاً ساخناً، ثم اصطحب كاتي الى سالن لكي تزور خالتها.
ولهذا لن احتاج اليك هذا المساء».

ابتسمت سارة رغماً عنها، بسبب اللهجة الملوكية التي القت بها جيل
كلماتها الأخيرة. واحست بأنها تعرف تماماً ماذا ستفعل جيل. ستأتي كاتي
الى كوخ الأنسة بلاك ثم تذهب لقضاء الأمسية مع كولن. ولكن سارة لم
تعلق واكتفت بأن تقول:
«سأراك غداً، اذن».

ما كان بإمكان سارة ان تجد متعة في هذه اللقاءات السرية، والاثارة
الناجمة عنها. لأن ذلك كان يعني الاشتراك في خدع هيو. وارتعشت سارة
فجأة وهي تسير بعيداً. فإن الشعور بأنها على علم بالخداع الذي تمارسه
جيل كان يلازمها دائماً. وكانت تدرك بأن اعصابها المشدودة الى حد لا
يطاق على وشك التمزق. وقد استطاعت في الماضي ان تتحمل، ولكن
هذه الأيام الأخيرة كانت اصعب من ان تطاق. فالان، على الرغم من ان
هيو كان يبدو وكأنه غير شاعر بوجودها. فإن احساسها هي بوجوده قد
تفاقم، وكذلك احساسها بالثورة الداخلية العنيفة التي يستطيع ان يسببها
لها. ان معظم ما حدث بينها كان نتيجة لخطائهما. ولهذا فإن عليها الا
تلوم الا نفسها اذا راح الحديث عن احتمال اعلان خطورها بسبب لها الألم.
فالرجال عادة لا يعتبرون ضمة او ضمتين امراً جدياً. ولكن سارة حنت الى
الشعور بذراعيه تطوقانها ثانية، ولو كان مدفوعاً بترعة عدائية.

«ولا تهتمي بالعودة بسرعة! هتفت جيل وهي تهبط السلم حاملة
سترتها على ذراعها. استطيع ان استعمل اللاندروفر اذا ما دعت الحاجة».
لماذا لم يخطر لها هي شخصياً ان تستعمل اللاندروفر؟ فكرت وهي
تسوق السيارة في الطريق المحاذي للشاطئ. وكان المنظر جميلاً جداً.
وكذلك الجو.

ابطأت سارة من سرعة السيارة. واخذت تفتش عن مكان تقف فيه.
وكانت الغيوم المتجمعة من ناحية الغرب تغير ألوان الخليج باستمرار من
الرمادي الفاتح، الى باقة من الألوان الزرقاء تفوق بهاء والقا ألوان البحر
الابيض المتوسط الذي شاهده خلال عطلاتها في السنين الأخيرة.
اوقفت سارة السيارة، وتمهلت لحظة قبل ان تخرج منها.

خالج احساس سارة بعض الانتعاش، مما جعل كاتبها تنحسر وهي في
طريقها باتجاه البرية الوعرة. ووجدت جدولاً فراحت تراقبه يسيل فوق
الاحجار في مهده الصخري. ثم انحنت وغرفت بعض المياه الباردة في
يدها. ورفعتها الى شفيتها الجافتين. ثم خلعت السترة، وجثت على تنوء
صخري فوق شاطئ الجدول، واخذت في يدها مجموعة من الحصى.
وكتبت اسمها بعناية على الأرض، مجمعة الاحجار الصغيرة وقد علا
وجهها العبوس لشدة استغراقها.

عندما كانت طفلة كانت امها تلعب معها احياناً على طرف الجدول
الصغير قرب بيتهم في ويلز. وكانتا تتسابقان احياناً في كتابة اسميهما
بالحصى لتريا من تنتهي أولاً، وسهل الأمر ان عدد حروف اسم والدتها
كانت تماثل عدد حروف اسمها.

واحست، وهي تستعرض ذكرياتها الآن، بأن معرفة سر فوزها الدائم
بهذه اللعبة ليس من العسير تخمينه الآن. ولكن أن تربح في اية لعبة، مهما
كانت بسيطة، كان انتصاراً كبيراً للطفلة سارة حينذاك، التي لم تتجاوز
ربيعها الخامس.

افلتت تنهيدة من شفتي سارة وهي تمضي في طريقها، متتبعة مياه
الجدول المتلاثة، حتى جذب انتباهها منظر غزال صغير يقف على حافة
الصخور. فاقتربت منه باحتراس، ولكن الغزال راقب تقدمها بعصبية
وحذر، ثم رفع رأسه وقفز هارباً.

شردت سارة دون هدى، نصف حاملة تحت اشعة الشمس الدافئة. واستسلمت للصمت والهواء العابق برائحة الصنوبر حتى كادت تصل الى حالة من السكينة المخدرة. وحادت عن الجدول، ثم ذهبت لتجلس على حافة افريز صخري غارق في الظلال. وكانت قد افلحت في صعود جزء من جبل بن مور المعروف بسهولة التسلق، ولكن ليس من دون خريطة وبوصلة، فهما ضرورتان. ولم تكن سارة تعتزم ان تتسلق الجبل. وما ارادت الا ان تتجول لكي تمجد نفسها جسدياً من اجل التخلص من افكارها. وعندما جلست مستندة ظهرها الى الصخرة الدافئة، احست بانها قد افلحت في تحقيق مرامها.

حلّق صقر في الفضاء وراقبه سارة حتى اطبق جفناها الثقيلان. ولم يكن هناك سوى الصقر والشمس والرياح الهامسة. ففرقت في نوم عميق. لم تتذكر سارة بعد ذلك اللحظة التي استسلمت فيها للنوم. ولا ما الذي ايقظها. الا اذا كان جسدها يحتوي على نوع من جهاز للانذار ظل متيقظاً اثناء نومها. ولما فتحت عينيها لم تعرف اين هي. واعتراها الفزع وكأنها وقعت فجأة في قلب كابوس معلق. ولم تستطع ان تعثر على اي اثر يدها على مكان وجودها اذ احاط بها حجاب من الضباب الرمادي حاجباً كل شيء. وما كان الامر ليختلف لو انها وجدت نفسها فجأة في عالم اخر، او في منتصف الطريق بين كوكبين. ابداً لم تر من قبل مثل هذا البياض الذي يشبه القطن، او هذا الهواء السميك الذي لاح لعينيها الفزعيتين جامداً، لا يمكن النفاذ خلاله.

بعد لحظات خيل لها انها كانت دهرأ، تحركت ببطء وحذر، خائفة ان تهشم هذا الصمت الرهيب. . . هذا الصمت الذي لم تعرف له مثيلاً من قبل على الرغم من انها كانت قد قرأت قصيدة عنه في الماضي تتحدث عن جزر الهيبيريديز وصمت البحار. وتساءلت سارة، بابتسامة ملتوية، فيما اذا كان الشاعر قد عانى مثل تجربتها هذه.

افلحت روح الفكاهة التي خالجتها للحظة في تشتيت بعض مخاوفها: وراحت تمشي متعثرة. واحست بتقلص في احدى قدميها وهي تنظر الى ساعتها مما جعلها تحفل من الألم. كانت الساعة الثامنة تقريباً. لقد نامت ساعة! ولما خف الألم في قدمها عاد اليها الفزع. وراح ذهنها يحيش

بالقصص المأساوية عن ناس ضاعوا في الجبال. اذ ان والدها كان عضواً في احدى فرق الانقاذ. وعرفت من تجاربه ان رجال الانقاذ لا يصلون احياناً في الوقت المناسب.

حاولت سارة بياس ان تتذكر بعض الارشادات. يجب عليها ان تبقى متيقظة. هذا هو اهم شيء! ثم انه عليها الا تقدم على محاولة حمقاء قد تؤدي بها الى الوقوع في هوة سحيقة قبل ان تصل المعونة. ولهذا جلست متكورة على نفسها. ولكن جلوسها ساكنة جعل ذهنها يعود الى سلسلة من الافكار المشائمة. ان المساعدة اذا ما وصلت ستصل متجسدة في شخص هيو فريزر دون شك! فهو الشخص الوحيد الذي يحتمل ان يعرف بوجودها هنا. ستذكر له جبل بالطبع اين ذهبت. وعندما تتأخر في العودة. . . وشعرت سارة بأن تخيل ردود فعله المحتملة قد اخذ يفرق ذهنها في هوات صبقية لا قرار لها. لا شك انها قد تصرفت بحماقة. ولكنه لن يفسر الامر كذلك. فقد علمتها التجربة بأن غضبه لا يمكن التنبؤ بأبعاده. واقشعر جسمها اذ خنت ما يمكن ان يقوله اذا ما وجدها على هذه الحالة. وراحت تبتهل متمنية ان ينقشع الضباب لكي تستطيع العثور على الطريق والعودة قبل ان يتفاقم الوضع.

بعد نصف ساعة تقريباً سمعت سارة صوتاً ينادي، ولكنها وهي راكعة قرب الصخور خالتها اياماً. وهكذا بدت عندما عثر عليها هيو: جاثية متكورة تحت الصخور العالية، ترتعش مرتجفة. ولم تسمعه حتى وقف امامها يكاد يدوسها بقدميه.

«لا شك انك ولدت تحت كوكب محظوظ». قال برصانة، وهي تنظر الى الأعلى لتحقق في عينيه ووجهها شاحب شاخص، وعيناها تفيضان بخليط عجيب من الخوف والامتنان. التصقت السترة الرطبة بجسدها النحيل. وراح قلبها يحور بسيل من العواطف اذ استراحت عيناه على وجهها الاعزل. «كيف وجدته؟ لم اصرخ». «اما انا فقد صرخت. ولو انك كنت تصغين واجبت، لوجدتك قبل الآن، مما كان سيجعل مهمتي اسهل».

هزت سارة رأسها هزة بكاء. وأخيراً تمنت بصوت مرتعش:
«أسفة، لم اسمك».

كانت يداها قد اطبقتا بشدة وعنف حتى بدا معصماها بلون البياض.
واحست من انحناء رأسه ونجهمه انه كان في حالة نفسية تنذر بالخطر. كان
ما يزال واقفاً، مهيمناً فوقها، دون ان يفصح عن شيء. ولكنه ما لبث ان
قال ووجهه خال من التعبير:

«لقد وجدت اسمك قرب الجدول، وكذلك اسم امك. فقد دعتها
صديقتك، عندما تحدثت عنها في لندن، باسمها: ايماء. وهذا اتاح لي ان
اتبع الأثر الصحيح. ولكنني كنت على وشك الرجوع عندما عثرت عليك
فجأة. لقد كان من الجنون ان اتي بمفردي كل هذه المسافة».

«كل هذه المسافة؟»
«نعم لقد تحولت اميلاً».

لم يبد لها هذا ممكناً. ولكنها لم تحرر على الاعتراض. وركع على الأرض
بجانباها وامال رأسه باتجاهها.

«الم تدريكي خطر الشرود وحيدة في مكان كهذا دون اية احتياطات.
حتى ولا معطف حقيقي؟ لو لم اجدك لتجمدت من البرد قبل بزوغ الصباح
بهذه الثياب الهفافة».

وتنقلت عيناه فوق جسمها وثيابها الرقيقة بجرأة. فارتجفت كريمة في
مهب الريح. وتناهى اليها صوته يتأرجح بين الغضب والاهتمام.

«لم يكن في الأمر ما يستدعي هذا. اليس كذلك؟».

وكاد هيو يسمع النفس الحاد الذي سحبه في الفضاء المشحون حوله
عندما قالت:

«هل تظن بأنني فعلت هذا عن عمد؟».

«ربما، بعض الناس يجدون متعة في عمليات انقاذهم».

«ولا استطيع ان اثبت لك شيئاً. ليس بوسعي ان اقدم لك اي برهان الا
كلمتي».

طاف نوع من الاستهزاء بفمه الحازم وقال معلقاً:

«ان اي واحد منا قد يتعرض لسوء الظن».

«لم يخطر لي انني سأفقد طريقي».

«ماذا كنت تتوقعين؟».

اخذت سارة تصارع للوقوف على قدميها المرتعشتين محاولة الابتعاد
عنه. ولكن يده هبطت ضاغطة على كتفها بقوة كانت كافية لتلزمها مكانها.
«من الأفضل ان تبقي هنا في مكانك. لا اعرف ماذا تريدن، ولكني لا
انوي المخاطرة بعنقي مرتين. فقد نسلك درياً خاطئاً. وكما قلت لك من
قبل، انني مجنون بلا شك للجرأة على القدوم الى هنا بمفردي».

سرت في جلد سارة مئات الرعشات وهي تحاول ان تتخلص من قبضته
القاسية. وألتمها التكبيرة الهائلة التي افتر عنها فمه الى حد كبير. فجابهته
بنظرة طويلة متوسلة اذ ركع بجانبها على الأرض مرقعاً بصوت جزمته على
الأرض الصخرية الوعرة.

وبدا وكأنه قد لان قليلاً. وراحت عيناه تتفحصان مكانها بنظرات
سريعة مقيمة.

«منتظر هنا بعض الوقت. قد ينقشع الضباب. ان الرياح قد بدأت
تهب، والتنبؤات الجوية حسنة. واذا ما حالقنا الحظ فإن الضباب سينحسر
خلال فترة نصف ساعة. اننا على مسافة بعيدة عن السفح، ولكننا لسنا
قريبين كثيراً من القمة».

حدقت سارة في هيو باضطراب كبير وقد ارتسمت الحيرة على وجهها.

«الن يقلقوا في لوخ غويل؟».

استند هيو بظهره الى الصخرة، فاردأ كتفيه، محاولاً ان يجد بقعة مريحة.

وقال وهو يطلق سراحها بحركة لا مبالية:

«لقد طلبت منهم ان يعطوني مهلة حتى العاشرة. اذا ما حالقنا الحظ قد
نصل قبل هذا الموعد فالساعة الآن لم تتجاوز الثامنة الا قليلاً. واذا لم
نستطع العودة فاننا سنعتبر محظوظين ايضاً لو لقينا بعض المساعدة».

«انني لاتساءل لماذا لا تلقي بي في قعر هاوية ماء».

قالت متسرفة، منهورة.

ابتسم هيو ابتسامته الهائلة وعينه تستقران على خديها المضرجين.

«أوكد لك بأنني لا اهجر مسؤولياتي بهذه السرعة. حتى ولو وجدت
هوة سحيقة».

لجنت سارة عينيه، والتفتت غير لاوية على شيء. وراحت تحدق في

العتمة المتكاثفة. وسألت فجأة:

«هل تناولت عشاءك؟».

«في المطبخ. اجاب ببطء. بسرعة. اخشى انني لست من فصيلة
الابطال الذين يهرعون الى تسلق اعالي الجبال ومعداتهم خالية حتى ولو من
اجل فتاة جذابة مثلك».

«أسفة!».

«اشربي هذه. لا شك انك تشعرين بالبرد».

اخذت سارة الزجاجاة منه غير راغبة، وامسكت بها بين يديها الباردتين.
«اشربيهما!».

أطاعت سارة ورفعت الزجاجاة الى شفثيها وشرقت قليلاً عندما احست
بالدفء يسري في حنجرتها العارية. ثم اخرج هيو ترمساً من الجيب الآخر
وسكب منه بعض القهوة الساخنة.
«هذه من ييدي. لقد استطعت ان التهم بعض الطعام بينما كانت
تعددها».

كان للقهوة مفعول السحر وسرت الحرارة في جسم سارة، طاردة
البرودة، رافعة من روحها المعنوية رغم ان الضباب كان ما يزال مهيمناً.
وسيطرت على الرعشة في صوتها وقالت برقة:
«لا اريد ان تظن بانني ناكرة للجميل».
«وفري علي هذا، بحق السماء».
حدقت سارة فيه، ووجهها ينبض بالخيرة. وادهشها التغير السريع
الذي اعترى مزاجه.
«أسفة».

تمتمت بشيء من الحدة.

وعندما لم تسمع منه جواباً عقدت ذراعيها حول جسمها وتكومت على
نفسها. واحست بأن وجهها كان قدراً، اما قميصها فكان متجمعا.
ولاحظت انها قد فقدت احد ازرارها. ولكنها لم تبال. وضايقها شعرها اذ
انها كانت قد اصاعت شريطتها. مما جعله يتهدل حول كتفيها، ويتطاير في
المواء حول قمها. وحاولت ان تدفع به الى الوراء وقد نفذ صبرها. ثم قالت:
«عندما اجد بعض الوقت سأقص شعري! ان شكلاً قصيراً سيبدو

لطيفاً. ويساعدني على ترتيبه بسهولة».

حطت عينها هيو فوق رأسها المحني. وقال بصوت فيه تهديد رقيق:
«اياك ان تفعلي ذلك. دعي شعرك وشأنه. انه يعجبني هكذا».
«لا يهم. لم تبق لي الا عدة ايام هنا».

وسرت في جسدها رعشة قوية مؤلمة، فاعتصرت جسمها بين ذراعيها
لكي لا يلاحظ. اخطأ هيو فهم ما عتته. فتبدل مزاجه على الفور، وقال:
«اما زلت تشعرين بالبرد؟».

وامسك بذراعيها جأراً اياها حتى لصقت به. وقال وقد بدا وجهه
مشدوداً:

«قد تضطر للبقاء هنا مدة. والبرد كالشيطان المريد في هذه الأماكن».
شرقت سارة بأنفاسها، وحاولت ان تتخلص منه قائلة:
«دعني اذهب!».

فهزها هزة خفيفة وقال:

«انني لا امزح او ابحت عن سبب لكي احيطك بذراعي. لا اريدك ان
تفقدني الوعي. هذا هو كل مرادي. واشتدت قبضة ذراعيه حولها. هل
تشعرين بالدفء الآن؟».

«لست بردانة».

قالت ووجهها يتأجج تحت وطأة صراحته الهازئة. وغمرتها موجة من
الكراهية.

«لماذا ترتعشين اذن؟ ومد اصابعه الفولاذية الى اصابعها يتفحص
حرارتها. ان ثيابك غير مناسبة بالمره».

«لقد احضرت سترة معي. وكانت الشمس حارة».

«اما الآن فهي ليست كذلك. واما بالنسبة الى هذا السترة فهي غير
كافية على الاطلاق».

وقبل ان تستطيع الاعتراض خلع معطفه الكبير، ولفه حولها بحيث
احاط بها معاً. فوجدت نفسها تلتصق بصدرة الدافء بحكم الضرورة.
احست سارة بما يشبه الحمى، وشعور غامر بالاثارة على الرغم منها.
فأغمضت عينيها وقد قررت الا تدعه يحزرها ما بها. وغزاها احساس عميق
بالشوق نبع من حيث لا تدري، مخدراً وعيها حتى خالجهما الخوف من ان

تتكلم او تتحرك.

مرت الدقائق ببطء ثم سال هيو:

«هل تشعرين بتحسن؟»

كانت سارة تحلم. ولكنه عندما تكلم نظرت اليه بسرعة لتجد انه كان يحدق فيها بغرابة. فادارت رأسها بسرعة ماسكة انفاسها. وراح قلبها يضرب بشدة في السكينة. واحست بأن الحقيقة الوحيدة هي هذا الرجل الذي كان يرنو اليها بقلق مستتر.

«سألتك سؤالاً».

«اسف! طبعاً اشعر بتحسن. لا حاجة بي الى معطفك».

فارتفع احد حاجبيه بحركة ساخرة، ونظر اليها هازئاً:

«هذا مثال لنكران المرأة لجميل الرجل».

ورفع يده، فظنت سارة انه كان على وشك استرجاع معطفه. ولكن عوضاً عن ذلك امال رأسها الى الوراء بقوة، وازاح بأصابعه شعرها الثقيل عن عينيها غير عابىء بالعقد. ثم رفعه عن عنقها بمهارة متمردة، سارحاً بنظراته فوق وجهها الرقيق، متمهلاً بعينيها فوق البقع المتسخة على خديها. وفوق اهدابها الذهبية الأطراف.

«هيو...»

سمعت سارة اسمه على شفثيها يتصاعد مع تنهيدة خفيفة، دون ان تشعر بأنها قد نطقت به. واعتراها شوق عارم. وبدأت تختلط في اعماقها مشاعر حلوة. ولكنه لم يتحرك من مكانه. وتابعت يده فقط التجول فوق وجهها، مسمرة اياها في مكانها، مثيرة عواطف في نفسها لم تكن تعرف بأنها تملكها.

«كنت تقولين...؟»

حنها على المتابعة برق، بصوت خافت امتزج بالريح التي بدأت تهب:

«لا شيء...»

وداهمها الاضطراب، واطبقت جفنيها الثقيلين. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية نفسها ضد مقدرته على قراءتها كالكتاب. وصيغت الحمرة وجنتيها. وخشيت ان يلمح لونها حتى في النور المتلاشي.

بعد لحظة صمت، تمهلّت خلالها اصابعه بتردد على وجنتيها المحمرتين، كما خشيت، قال ببطء:

«لقد بدأت تشعرين ثانية، يا سارة. وكنت قد قررت ان تعيشي في عالم يجذب لا مكان للعاطفة فيه مدة طويلة. ولكن هذا العالم قد بدأ يختفي الآن».

عادت سارة الى وعيها تحت تأثير لهجة هيو المتأججة. ولكنها لم تجرؤ على التحرك، وتصلب جسمها. كانت خائفة ان يحزر الكثير. فإن عالمها المجدب الخالي من العواطف قد تعرض لغزو هذا الرجل الذي هو ملك انسانية اخرى. هل يتوقع منها ان تشعر بالامتنان لانه افلح في ايقاظ عواطف راح يراقبها بنوع من الموضوعية الطيبة. واحست بالغضب المفاجيء يملأ عينيها بالدموع اللاذعة. وشعرت بدفته يتسرب اليها، فاختلجت متشنجة.

ولكنها، حتى عندما حاولت ان تبعد عنها ثانية، احست بذراعيه تضيقان حولها، شادتين جسدها بحركة رقيقة. وفجأة رفع رأسه وكأنه قد احس بالخطر وراح يتفحص السماء.

«الغيوم! هتف وقد سرحت نظراته فوق رأسها. ولاح يقظاً يتنسم الاجواء. انها ترتفع تحت تأثير الرياح الهابة. يحسن بنا ان نسرع».

وهب على قدميه جاراً سارة معه، مركزاً انتباهه على الجو. وبدأ رأسه الداكن الصلف وكأنه قد عكس لون السماء والعمرة. واخذت الريح تهب عابثة بنياها، مائلة الليل ضجيجاً، ممزقة الصمت المخيف الذي كان سائداً من قبل. وكان الضباب الآن قد ارتفع الى قمة الجبل بينما لاحت الارض امامها واضحة. ولكنها عندما رفعت وجنتيها الحارتين الى الريح الباردة، احست برذاذ المطر وينذير امطار ستهطل عما قريب.

«يحسن بنا ان نسرع».

رد هيو، وهو يتفرس في السماء ليستدير اليها خالماً معطفه. ثم زرره حولها مسكناً محاولاتها الضعيفة للاعتراض بنظرة حادة. والتقط الترمس بيد وامسك بذراعها بالاخري. ولم يسمح للتعبير الصارم المرتسم على وجهه بأية معارضة اذ شدها بقوة لتجابهه.

«علينا ان نسير مسافة لا بأس بها. وقد تعود الغيوم فتجتمع في اية لحظة بسبب الجو المتقلب هذه الليلة. ولهذا اسرعي بالمشي. نعم... هذا حسن. قد لا يحالفنا الحظ مرة ثانية اذا ما تمهلنا».

ولاح وجهه عابساً متجهماً وهو يلقي نظرة سريعة على وجهها.

كان هيو على حق، كما ادركت سارة بعد برهة. اذ لم تمض عليها نصف ساعة الا واحاطت بها ثانية اسوار الضباب الرمادي وهما لا يزالان على بعد مئة متر تقريباً من الطريق. ودفعها امامه بقسوة، رافضاً ان يسمح لها بالتوقف حتى وصلا الى السيارتين. وادركت سارة لاهثة الانفاس، بأنه ما كان يوسعها ان تقوم بهذه الرحلة بمفردها. فقد بدا وكأنها سارا عدة اميال، الا ان هذا لم يقترب بها من هدفها كثيراً.

«انا اعرف هذه المنطقة جيداً. عندما كنت صبياً تسلقت قمة بن مور». بدت خطوط فمه مشدودة من التعب والتوتر. وقال لها وقد توقفت للحظة في العنمة، متأهية، وكأنها على وشك الطيران:

«اريدك ان تعديني يا سارة، الا ترجعي الى هنا ثانية بمفردك». فتحت سارة باب السيارة وهزعت الى داخلها محاولة ان تتخلص من النبرة الديكتاتورية الحازمة في صوته. وشعرت بأنه لم يكن يتوكل او يتظاهر بمشاركة وجدانية لم يحس بها. فكل ما يريد هو الا تتصرف بهذه الطريقة الحمقاء مرة اخرى.

راحت تبحث عن مفتاح المحرك على غير هدى.

«انت ديكتاتور».

قالت بغصة في حلقها، محاولة ان تتجنب النظر اليه. واعتراها نوع من الشعور بالذنب لأنها وجدت ان جانباً من نفسها قد رفض ان يهادنه، ولو انها كانت شخصاً اخر لاندفعت بشعور من الواجب بالثناء عليه واغراقه بالشكر. وغمرت الثورة كيانه بأجمعه، ضد القدر الذي سمح لها بأن تقع في حب رجل لا تعني شيئاً بالنسبة اليه.

نظرت سارة الى وجه هيو. واحست باعصابها تنكمش خوفاً. كان هنالك شيء يشبه الغضب في عينيه. وكان ملاحظتها المقتضية قد جرحته. ولكنه ابتسم ابتسامته الساخرة المبهودة كما لو كان يتسم لملاحظة ابدتها طفلة جريئة.

«كنت تقولين...؟».

حثها على الاسترسال بارادته الفولاذية، ويده على الباب المفتوح تمنعها من التحرك بالسيارة، وصوته مشحون بالتحدي.

«أسفة».

قالت سارة وهي تطلق ضحكة رنانة مقتضية. وقد صممت على مجابهة الموقف. ان الانتهاء الى مثل هذه النعمة الناشئة هو خير الف مرة من ان يخمن حقيقة مشاعرها. ولو انها تبعت جانب الحذر المطلق لاستطاعت ان تحجب نفسها مرحلة الاذلال النهائي. وأجبرت عينها على مقابلة نظرتها النافذة وقالت برعونة متعمدة:

«انني ممتنة لك جداً، كما سبق أن ذكرت لك. ولكن اذا كان التكرار يسعدك فانا اكرر شكري لك، يا سيد فريزر. واعذك بأنني سأسلك سلوكاً حسناً في المستقبل».

«وما يعني كل شيء، او لا شيء. اهنتك يا آنسة ويتون. انحنى لاداء التحية للحضور».

وصفق باب السيارة بصرخة نصف مكتومة. فقفزت تحت وطأة عنف احتقاره اذ حط بثقله على المقعد بعيداً عنها، واثار اليها بالتحرك قائلاً:

«كل ما اسأله منك هو ان تتجني طريقي في المستقبل».

ظنت سارة وهي تعبس متحيرة، ضاغطة على مكبس البنزين، بأنه من الغريب ان يقول رجل مثل هذه الكلمات لسكرتيته.

بعد رجوعها الى القلعة قالت جيل في صباح اليوم التالي:

«لا اعرف لماذا غضب هيو عندما اكتشف انني لم اكن هنا عندما رجعتا الليلة الماضية. لقد حاولت ان اشرح له انني كنت متيقنة بأنه سيجدك. ولكنه رفض الاصغاء الي. مما جعلني اقرر أنه انما اراد ان يثير ضجة كبيرة حول لا شيء. خصوصاً أن الشخص المعني لم يكن الا انت».

«لقد كان غاضباً بشأن موضوع اخر. موضوع خروجك مثلاً في ذلك الوقت المتأخر، كما اظن».

«ما احق مثل هذا التصرف. انا لم اعد طفلة».

«بغض النظر عن هذا، اذا توخينا الكلام بشكل عام، كان من المحتمل ان تتعرض حياة انسان او اثنين للخطر. ان اي شخص قد يتعرض للمتعاب. وكان من المفروض ان تقومي بطلب المساعدة اذا لم نعد».

دفعت جيل رأسها الى الوراء وقالت دون ان يبدو عليها التأثير:

«انك اسوأ من هيو. ما زلت اصر بأنه لم يكن هناك داع للغضب الذي اظهره. كانت الساعة العاشرة تقريباً فقط. كما ان كاتي كانت تعرف اين

تجدني».

«يبدو ان كاتي تعرف الكثير. اعتقد انها عرفت بوجود كولن هنا قبل ان اعرف انا بزمان طويل».

هزت جيل كتفيها، ولكنها بدت خجلة بعض الشيء اذ قالت:
«لقد عرفت كاتي طوال حياتي، منذ ان بدأت اذكر الناس والاشياء. ولهذا فانه من الطبيعي ان تخلص لي دون الآخرين. استطيع ان اعتمد عليها.
«حسناً. انت تعتمدين عليها. ولكن يجب عليك ان تذكرني بأنني لن استطيع ان افعل المحال. لا شك ان هيو سيجد الحقيقة يوماً ما. واذا ما اردت الصراحة، فإنني سأنتفس الصعداء عندما يفعل. ولو كنت مكانك لركزت كل جهودي على محاولة ايجاد تفسير جيد».

ألقت جيل عليها نظرة عابسة، ثم قفزت على قدميها وشعرها المجعد يتناثر:

«بحق السماء، لا تبدأي بالقاء المحاضرات علي ثانية. لقد سمعت منها ما يكفيني طوال حياتي. لماذا يعترض هيو على زواجي من كولن اذا كان هو قد اعتزم على الزواج من امرأة سيئة مثل ييث؟ ان احداً لا يهتم بي مطلقاً».
داخل سارة شعور يشبه الغثيان. وراحت اذناها تطنان طنيناً مؤلماً.
وسمعت نفسها تحجب بصوت واهن:

«ان بعض الاشخاص حاولوا ان يساعدوك...»
«كل شخص يختار طريقته! اجابت جيل بغموض، وخداها محمرتان من الغيظ. ولكن دعيني اقول لك بانني لا ابالي باكتشاف هيو للحقيقة. ثم انه قد يجد صدمة في انتظاره في وقت اقرب مما تتصورين».

والثفتت جيل لتناول معطفاً صوفياً أزرق عن الكرسي الذي كانت تجلس فوقه في غرفة سارة، غير عابثة بالتعبير المرتسم على وجهها الشاحب.
«هل ستأتين، ام لا؟».

قالت جيل بصوت ما يزال فيه اثر للضجر، وهي تتحرك باتجاه الباب.
فبتعتها سارة كارهة بعد ان التقطت معطفها هي أيضاً.

كانت جيل تعاني من احد امزجتها الطفولية الانتقامية. ولهذا لم تكن بالرفيقة الودودة هذا اليوم. وتمنت سارة لو انها رفضت اقتراحها بأن تذهباً معاً لتصففا شعرهما عند المزين. واحست بأن الوقت قد فات لتغيير رأيا

الآن من دون ان تثير شكوك جيل المغرمة بتوجيه الاسئلة المربكة، والتي تملك موهبة على انتزاع الأجوبة المهمة. وتتهدد سارة وهي تهبط السلم وقد طاف بذهنها ان جيل تستطيع ان تتخذ من موهبتها مهنة.

قابلنا هيو في الردهة. وكانت سارة قد امضت الصباح كله في المكتبة، محاولة ان تنفذ بعناية سلسلة من التعليمات التي تركها لها مكتوبة بخط يده ووضعها بجانب الآلة الكاتبة. وباستثناء عدة دقائق اطل خلالها ليوقع بعض الرسائل الهامة، كانت هذه هي المرة الأولى التي استطاعت ان تتحدث فيها اليه هذا اليوم.

رفع هيو حاجبيه متسائلاً، وهو يقف جانباً من اجل ان يدعها تمران.
فترددت سارة، وتورد وجهها تحت وطأة نظراته الفاحصة.

«هل تتذكر يا سيد فريزر... بأنك سمحت لي بالذهاب لتصفيف شعري هذا العصر؟».

ووقفت غير واثقة، بينما سارعت جيل الى العبور خلال الباب المفتوح.
فتمهلت نظراته على رأسها الذهبي بتعمد، وبدت ساخرة بعض الشيء.
«نعم. انني اذكر الآن، يا آنسة ويتون. اظن ان بعض العناية بمظهرك مفيد لك بعد ليلة البارحة. على الرغم من ان شعرك يبدو لي جميلاً على الدوام».

اعتري سارة شعور احمق، لا تفسير له، بأن هيو كان يغازلها. ولولا الوميض الخفيف الساخر في قرارة عينيه لصدقت بأن خيالها لم يخترع هذه الفكرة.

ولكن كلماته الأخيرة التي تنهت اليها، مصقولة ملساء، اقنعنها بأنها كانت غبية لتسمح بمثل هذه الخواطر:

«ان المزين الذي ستذهبن اليه ماهر جداً. فييث تبدو دائماً كنجمة سينمائية بعد ان تزور صالونه».

كانت جيل قد قادت السيارة وتوقفت بها امام المدخل. وراحت تنتظر سارة بصبر نافذ، ضاغطة على بوق السيارة. وتحت وطأة هذا الصوت لمعظم شلل سارة التي كانت تقف متجمدة في مكانها. فنظرت الى هيو نظرة شاخصة، ثم تمتعت تستأذن بالذهاب، مرددة عدة كلمات غير مفهومة.
ودارت على عقبيها، ثم فرّت هاربة.

لاستعادة توازنها . وكان نور النهار قد بدأ يتلاشى عندما وصلا الى البيت الكبير المربع المحاط بالاشجار . ولم يبد منعزلاً او كثيباً كلوخ غويل . ولاحت اراضيه ، المحمية من تأثير الرياح ، غنية بالوان زهور الرودودندرون وزهور الاسيجة التي كانت على وشك التفتح .
«انه مكان قديم وجميل» .

«يبدو ان كل سكان الجزيرة هنا» .

همس ايان بصوت خافت ، وهو يأخذ ذراع سارة عند اسفل الدرج الخشبي الحلزوني الذي هبطته بعد ان وضعت شالها في الأعلى . عند مدخل قاعة الرقص قدمها ايان الى السيدة اسكويت ، والدة بيت الأرملة ، والى السير دونالد ارفين ، عم بيت من غلاسكو ، الذي راح يساعد في الرسميات . واعتقدت سارة ، وهي تصافح السيدة الصغيرة الحجم الغنية بمشاعر الأمومة ، بأن بيت لا تشبه والدتها مطلقاً . اذ ان بيت لا تملك الا القليل من دماء والدتها وعذوبتها .

بعد قليل تحركا ، وقدمها ايان الى عدد كبير من المدعوين . لاحظت سارة وجود حشد كبير . وكان معظم الرجال يرتدون الملابس التقليدية للسهرة في مناطق الهايلاند ، بينما معظم النساء يرتدين التنانير الشعبية الطويلة . وراحت فرقة موسيقية صغيرة تعزف فوق منصة مرتفعة قليلاً في قاعة الرقص . وبدا عليهم السرور واضحاً . وسرت عدوى هذا الجو المرح الى سارة ، فوجدت نفسها بعد عدة دقائق ترقص الفالس بسعادة بين ذراعي ايان ، وقد اخذت بعض غاؤها السابقة تتلاشى .

وبينما كانا يرقصان شدها ايان اليه وهمس في اذنها ، وعيناه على شعرها الذهبي المنسلب في موجات راحت تتطاير متجاوية مع خطوات رقصتها السريعة .

«انك جميلة يا سارة» .

ادركت سارة من النبذة العميقة في صوته ، بأنه قد يسعى يوماً ما ، كما كان قد لمح لها ، الى نشدان ما هو ابعد من الصداقة . واحسنت انه من الأرحم ان تحاول ايجاد طريقة لتحذره موحية اليه بأن الصداقة هي كل ما تستطيع تقديمه له . ولكنها كانت شديدة الاستغراق في البحث بنظراتها عن هيو ، من فوق كتفه ، حتى انها بصعوبة سمعت ما كان يقوله لها . وضاعت

٩ - وغرد طائر في القلب

عندما جلست سارة ، بعد عدة ساعات من اليوم نفسه ، تنتظر ايان ليأخذها الى الحفلة شعرت بياس متفاقم . ولم تكن راغبة في الخروج مطلقاً . ولما وصل ايان اخيراً ، لم يفلح الاعجاب الصريح الذي ارتسم في عينيه ان يخفف من كآبتها . كيف ستستطيع ان تتحمل الموقف فيما لو اعلن هيو خطبته لبيت ، كما لمحت جيل بأنه سيفعل . وطردت سارة الفكرة المؤلمة من ذهنها . وجلست في السيارة بجانب ايان .

كان هيو قد سبقها بصحبة جيل وأحد الجيران . وبقيت سارة في غرفتها عن عمد حتى سمعتها يغادران المنزل ، وقد قررت الا تعطيه الفرصة لادراك حقيقة مشاعرها ، او ابداء ملاحظة قد تطيح بالبقية الباقية من قمالكها لنفسها .

اخذت سارة نفساً عميقاً ، واجبرت نفسها على التخلي عن التفكير بمشاكلها عندما تنهى اليها صوت ايان يعتذر بقلق بسبب تأخره .

«لا يهم . أنا اعرف كل ما يتعلق بهذه الأمور . فإن مرضاك يجب ان تكون لهم الأولوية بغض النظر عن كل ما يحدث» .

«اظن ذلك . قال بابتسامة ملتوية . من حسن الحظ ان الحادث كان بسيطاً ، على الرغم من انه جعلني اعطيه اهمية اكثر مما يستحق عند وقوعه . تعرفين ما اعني؟» .

هزت سارة رأسها مبتسمة وهي تنظر اليه .

كانت المسافة الى بيت بيت ، قرب خليج كارسينغ بعيدة قليلاً . ولكن سارة لم تهتم فقد وجدت في رفقة ايان صحبة طيبة . وهذا اعطاها الفرصة

معظم كلماته في الفضاء فوق رأسها.

ولاح ان ايان قد حزر اخيراً بأن افكارها لم تكن معه، ولولم يعرف اين كانت بالضبط، فقال:

«إذا كنت تبحثين عن اصحابنا من لوخ غويل فلا داعي لأن تقلقي. لا شك انهم هنا في مكان ما يتمتعون بالحفلة والرقص».

«في الحقيقة كنت افكر في جيل».

اجابت وهي تشعر ببعض الخجل من نفسها. لا لأن ما قالته كان بعيداً جداً عن الحقيقة بل لأن جيل ومشكلتها كانتا لا تفارقان ذهنها.

«اظن اني لمحتها قبل قليل، في لحظة دخولنا. قال ايان. وكانت ترقص. اعتقد انها في صحة جيدة الآن. فقد مضت مدة لا بأس بها على عملياتها».

ابتسمت سارة وهي تلتفت الى ايان ثانية. وراحت تنظر اليه بينما كان يقودها في الرقص. وغمّت لوتنسى هيو. فإن ايان هو الذي اصطحبها هذه الأمسية، ومن حقه عليها ان تildو مرحلة.

لم تر جيل في أي مكان. واملت سارة الا تكون ما تزال غاضبة من هيو... من المؤسف انها لن تستطيع ان تسأل كولن ان يأتي معها؛ وهذه حقيقة يبدو سلوكها السابق في ضوءها غيباً. فلو انها كانت شجاعة، وحاولت ان تتكلم مع اخيها في الموضوع مرة ثانية، لكان في وسع كولن ان يأتي معها ويستمتع بالحفلة.

عزفت الاوركسترا النغمات الأخيرة من رقصة الفالس. وانساب ايان وسارة بين ذراعيه فوق ارض الصالة، وعيناه تتلألآن.

«سأحاول ان اجد بعض المرطبات قبل ان يتقظ الآخرون للفكرة نفسها. قال مقهقها. ان المرء بحاجة الى ان يحتفظ بقواه من اجل مجابهة هذا النوع من الرقص».

فكرت سارة بأنه كان هناك عدد كبير من الناس. وراح ايان يحاول ان يشق طريقه بين الجموع بصعوبة بالغة.

«من اين اتوا جميعهم؟».

سألت سارة وقد افلحت في العثور على مكان هادئ، وعلى كأس من الشراب البارد.

«قد تتعجبين! ان عدداً كبيراً منهم لم يكونوا بين المدعوين على الأكثر. وهذا لا يعني انه يمكن ان نعتبرهم متطفلين. فهم في العادة اصدقاء للاصدقاء اذا ادركت ما اعني».

«نعم، افهم».

اجابت سارة بهزة من رأسها. وظنت انه يمكن اعتبارها هي شخصياً من هذه الفئة، اذا ما توخى الانسان الدقة. وحدقت فيها حولها ترتشف شرابها. وراحت تستمع بترخ الى ايان وهو يشير الى عدد من الاشخاص المرموقين الذين اتوا خصيصاً لحضور الحفلة. وكانت لم تر جيل بعد. وفجأة توترت اعصابها اذ رأت بيت ترقص بين ذراعي الرجل المعجب بها. بدت بيت طويلة جذابة بشعرها الأسود ووجهها المطلي بأناقة. وكانت حركاتها رشيقة. ووقعت عينها على سارة التي تراجعت بحفلة تحت وطأة النظرة العدائية الباردة التي ارتسمت في اعماقها. ولكنها اعتقدت بعد لحظة بأنها لا بد ان تكون قد اخطأت. الا ان بيت لم تبد وكأنها تفيض بمثل هذه السعادة التي لا بد ان تشعر بها فتاة على وشك ان تعلن خطوبتها. ولكن ايان لم يتح لها الا وقتاً قصيراً للتأمل. وبعد العشاء كانت قد بدأت تشعر بمزيد من السرور والارتياح عندما ظهر هيو فجأة الى جانبها. بدا انيقاً جداً وملفتاً للنظر، كما يمكن ان يبدو الرجل الطويل فقط في ثياب السهرة. وعلى الرغم من دوافعها الأخرى، فإنها لم تستطع ان تمنع نفسها من لذة تأمله بامعان، وكانت عيناه تلمعان كالفضة في وجهه الداكن الأسمر.

«هذه الرقصة لي، كما اظن».

وانساب بها بعيداً قبل ان يجد ايان الفرصة للاعتراض. وامسك بها بعيداً عنه قليلاً لكي يستطيع ان يرى وجهها.

«اخبريني هل تتأملين الناس دائماً بهذه الطريقة؟ من قمة الرأس الى الخصر القدمين؟».

«أسفة! هل اطلت التحديق؟ لقد كنت اتساءل اين كنت؟».

خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفهي سارة قبل ان تستطيع ايقافها. فنوردت قليلاً. ولاح الاحمرار واضحاً تحت جلدها الأملس الشفاف.

«لقد كنت اتأمل بذلتك باعجاب. في الحقيقة كانت جيل هي التي

اردت ان ارى».

«في هذه الحالة من الأفضل ان تتوقفي عن البحث. لا شك انها هنا في مكان ما. ولكن من المستحيل ان تجدي حزمة قش في هذه الزحمة فكيف بالقشة؟».

«كل ما اردته هو ان أتبادل معها بعض الكلمات».

«ألا يمكن ان تستعضي بي عنها؟ من فضلك لا تفسدي امسيقي بتوجيه مثل هذه النظرات المتعالية. انه شيء توصلت الى اتقانه تماماً، خصوصاً خلال الايام الأخيرة».

وحدث في وجهها بامعان، وعيناه السوداوان تطفحان بالاسئلة اذ انحدرتا فوق رأسها المحني ورموشها الثقيلة. وكان ثوبها من الحرير «الجورجيت»، ابيض اللون، له كمان واسعان مضمومان عند الرسغين. وتكملة تنورة فضفاضة. وكان صدر الفستان ضيقاً التصق بجسدها. كاشفاً عن عنقها وكثفيها. وبدت سارة فيه جميلة جداً.

احست بحواسها تتخدر تحت وطأة نظراته العميقة. وشعرت بالضعف، فكادت تتعثر اذ وجدت نفسها تفرق في بحر من اليأس. وضاعت ذراعاه حولها للحظة، وشدها اليه. ولم يصغ الى الاعتذار القصير الذي تفوهت به ولا التفسير الذي صاحبه.

لزمت سارة الصمت مشيخة بوجهها. واخذ النبض يضرب بشدة في اسفل عنقها. وغامت عينها. لم تشعر ابداً بمثل هذا الشعور من قبل. وكرهت هيولانه كان السبب. شفق هيولانها مسموعاً وعيناه تنتقلان فوق وجهها:

«دعينا نخرج من هنا. كل هؤلاء الناس! لا اعرف من اين جمعتهم بيت».

«هذا من اجل غاية جيدة».

اعترضت سارة بوهن، وهي تشعر بهيو يقودها عبر باب جانبي بحزم. ثم عبرا ردة مظلمة باتجاه خلفية المنزل. ولم تعرف اين كانا ذاهبين. «اشك في ان يستطيع الكثيرون منا التحمل».

علق هيو بجفاء، وهو يفتح باباً خارجياً انتهاء منه الى الهواء النقي العليل.

وجدت سارة نفسها تمشي مسرعة عبر ممر الحديقة، ثم عبر قوس بني في جدار آجري قديم يقود الى خيلة من اشجار الصنوبر وبعض الاعشاب القصيرة المتشابكة بعد ذلك هبطا بعض الدرجات الحجرية غير المنتظمة، ووصلا الى كوة قرب ما بدا لسارة في الظلام بركة تكاد تغطيها الاعشاب النامية. وقرب البركة رأت مقعداً خشبياً قوياً صقله تعاقب المواسم والاعواء.

حدثت سارة بفضول الى زوايا الحديقة التي بدت واضحة في ضوء القمر. وكادت ان تنسى وجود هيو للحظة، حتى قال بهدوء:

«لن نجدنا احد هنا».

وتحمل. واخذت الرياح تخلف فوق وجهه ظلالاً كلما هبت خلال اغصان الاشجار القريبة. مما اعطاه منظر قرصان متغطرس متهور. واخذ قلب سارة، الذي كانت ضرباته قد هدأت نسبياً، ينبض من جديد بشدة عندما نظرت اليه. وشعت ابتسامته برقة عندما نظرت اليه كومضة بيضاء في العتمة. ولكنها دهشت عندما قال لها:

«كان اخو بيت صديقي. وكان معروفاً في عالم سباق السيارات. لن تستطيعي تذكره بالطبع، لقد قتل قبل عدة سنوات. وكانت هذه البقعة هي بقعته المفضلة، كما كان يدعوها. كنا نأتي الى هنا احياناً عندما كنا صغاراً للهروب والاختباء من بيت. لا احد يأتي الى هنا الآن، كما اعتقد».

«آسفة. انني افهم».

«ووقفت امامه في ثوبها الابيض الطويل».

«الا تؤمن بالاشباح؟».

«لا، فيما عدا الشبح المنتصب امامي الآن».

وكانت الابتسامة ما تزال ترف على شفتيه عندما لمس احد قرطبيها الذي راح يهتز.

«وهوليس بالتأكيد شبح بن الذي كان يتمتع بروح الفكاهة والمرح».

سمعت سارة وراءها صوت انسياب المياه الى البركة المهملة، تحت الاعشاب النامية. وكان الصوت الوحيد حولها عندما توقف هيو عن الكلام. وعلى الرغم من شعورها بعدم الارتياح، سارت بعيداً عن هيو الى حافة البركة، ونظرت الى اعماقها المظلمة. واحست بالدموع تلسع

عينها.

ولقد بنى بن هذه البركة بنفسه. قال هيو مقترباً منها، ومتابعاً اتجاه نظراتها دون ان يلاحظ الدموع في عينها. كان يحب العمل في الحدائق، مثل بناء الجدران وشق الدروب وغير ذلك. ولم استطع مطلقاً ان اعرف كيف كان يوفق بين ولعه بالحدائق وتعلقه بريضة سباق السيارات. وان حبه للحدائق ما كان ليقتله.

قالت سارة وقد اعترها الخجل قليلاً للنبرة الجريئة في صوتها. ولكنها ما كانت ترغب في ان تدفع العواطف تتسرب الى نفسها ولو قليلاً. ويدت لها اللهجة العاطفية في صوت هيو سلاحاً آخر يوجه ضد تحصيناتها المضعضة. اذا لم تتوخ جانب الحيلة فإن البقية الباقية قد تتداعى، مخلفة اياها تحت رحمة تماماً.

وفجأة تمت سارة بياس لو كانت اكبر سناً او اكثر خبرة. ان هيو يشيرها ويحيرها معاً. وهويبدو قادراً على قراءة حالتها النفسية. واحياناً يبذل جهده لكي يروح عنها. ولكنها لا تعرف كيف تتعامل معه مطلقاً. لقد اعتاد ان يرمقها بطريقة توشي بالاستمتاع والتسلية. وهو يملك القدرة على اقتحام قلبها الاعزل بقسوة. وراحت اصابع سارة تبحث بلا وعي عن شيء تتمسك به، فلمست اوراق زهرة من زهرات الليلك الرقيقة. واستدارت بحركة آلية، ودفنت رأسها بين الزهيرات الباهتة المعطرة.

«سارة!»

جاءت ضحكة هيو رقيقة، هازئة قليلاً، ونفذت الى اعماق قلبها. ورفعها بين ذراعيه، وحملها الى المقعد. ثم وضعها هناك وجلس بجانبها. ولكنه احتفظ باحدى ذراعيه حولها.

سكنت بلا حراك، واعترها ما يشبه الغيبوبة. ومد هيو يده الاخرى الى ذقنها. ورفع وجهها اليه مراقباً العرق الذي راح يتفusus في صدغها. «انت تعرفين لماذا اردت ان تأتي الى هنا، اليس كذلك؟ لا من اجل ان اكلمك عن بيت او بن او جيل، بل لكي اعبر لك عن الحب، كما اردتني ان افعل عندما كنا فوق جبل بن مور البارحة. لقد شعرت بذلك». ارتجفت سارة دون ان تستطيع السيطرة على رعشاتها وقد صدمتها هذه المفاجئة الصريحة.

«ولا اريدك ان تشعر بأنك مدين لي بأي شيء».

قالت وهي تغص، وقد غمرتها المذلة، واشتعل وجهها خجلاً وهي تحاول ان تتنزع نفسها بعيداً عنه دون جدوى. كيف دفعتهما الاقدار الى الوقوع في حب رجل يمثل هذه القسوة، رجل لا يتورع عن تعبيرها بضعفها ورهافة حسها. ولكنها لم تستطع الافلات بهذه السهولة. فإن القسوة التي عرفتها فيه من قبل كانت لا تزال هنا، تسخر بها وتؤلمها.

لم يحاول ان يتظاهر الآن. ولم يكن في موقفه اي من التحفظ والسيطرة على النفس اللذين اظهروهما في الليلة الماضية. احس هيو بارتحافها ورفع رأسها. ولكنها دفنته بسرعة في كتفه. فاجبرها على رفعه ثانية. ولا حظ اليأس المرتسم على وجهها واضطرابها الفائق. وتناهى اليها صوته يقول:

«غداً، يا سارة، يجب علينا انا وانت ان نتحدث. لعله ما كان يجب ان أتى بك الى هنا هذه الأمسية. ولكن هذا الشيء بيننا هو امر لا يستطيع الانسان ان يقاومه مدة طويلة».

وابرز ضوء القمر معالم وجهها الجميل الصافي، وبدأ يافعاً اعزل، وقد استدارت عينها تحت وطأة عنف مشاعرها.

«غداً!» قالت بصوت خافت، لا يكاد يسمع، وانفاسها تتصاعد مضطربة لافحة عنقه. انها لا تريد ان تفكر بالغد. لا توجد الا هذه الليلة وهذا الرجل. فالآن لم تعد تملك ذرة من الكبرياء. انها لا تريد الا ان يجيها هيو كما تحبه. الكلمات ليست كافية، غير مهمة.

«يا حبيبي...»

كان ما يزال قربها، ولكنه استعاد ثماله لنفسه. وتصاعد صوته اكثر ثباتاً، وقد عادت اليه نبرته القولاذية.

«لقد اتيت مع ماكتري. ولهذا يجب ان اعيدك اليه قبل ان يشرع في البحث عنك. ستقولين له بأنك لا ترغين في الخروج معه ثانية. ان غدا هو يوم آخر!».

هل كان يعتذر ام يتوسل الى مشاعرها الأسمى؟ ورمت برأسها الى الوراء بعنف والشكوك تدميها.

«وماذا بشأن بيت؟» لم تستطع ان تمنع نفسها من السؤال، وهي تحرق

فيه خلال الظلام . لا يوجد شيء بيني وبين ايان . ولكن انت وبيث . . .
قالت جيل بانك قد تعلن خطبتك لها هذه الأمسية .

راح رأسها يدور وغزاها شعور حاد بالعذاب . انها على استعداد لان تدفع اي ثمن مقابل استرجاع هذه الكلمات التي افلتت منها مندفعة رغماً عنها . ما كان يجب ان تذكر بيث . ولكن النزوة التي دفعتها الى الكلام كانت اقوى منها . شعرت سارة بجسد هيو يتصلب للحظة ، ولكن ليس غضباً . ولم تستطع ان تتبين ملامحه لانه كان يقف عكس القمر الذي كسته غمامة . ولم تلمح الا بريقاً خفيفاً في عينيه عندما قال برصانة .

«ان جيل تتحدث كثيراً، هذه كانت عاداتها دائماً، وهي بارعة في الوصول الى النتائج الخاطئة . واستدار فجأة وامسك بوجهها بين يديه . لا تضيفي شيئاً آخر، يا سارة . سنعود الآن . وكما قلت لك قبل قليل، ان الغد هو يوم آخر» .

كانت الاوركسترا تعزف النغمات الاخيرة لاحدى الرقصات عندما دخلت قاعة الرقص . وصدمت حواس سارة الانوار المتألثة وروح المرح السائدة في القاعة ، وكأنها نغمات ناشزة . واحست بالثقل الجاثم على قلبها يتفاقم . ولم يساعد وجه هيو المجهد على تشتيت هذه المشاعر . ودخلها الشعور بأنها كانت تحلم هذه الساعة الاخيرة ، وان شيئاً لم يحدث في الحقيقة .

ثم بدت الدقائق التالية وكأنها قد نجحت في تحويل الأمسية الى كابوس مخيف . فقد ظهرت جيل امامها فجأة وراحت ترقص بالتجاهل بين ذراعي كولن . وذلك في اللحظة التي داهمتها فيها بيث مصممة غاضبة .

اعترى سارة ما يشبه الاغواء ، شعور جديد مريع ، وهي ترى بيث تضع ذراعها حول ذراع هيو وكأنها تملكه ، مبتسمة له ابتسامة مضيفة .

«لقد بحثت عنك في كل مكان يا حبيبي . ذكر لي البعض بانك كنت تتناول مشروباً ، ولكنني لم اجدك . ثم سألت جيل عنك ولكنها كانت مشغولة جداً بالتمتع بصحبة صديقها الفنان من لندن ، مما جعلها غير قادرة على الانتباه الى اي شخص آخر . انا اغفر لها بالطبع ، فقد بدت غارقة في الحب» .

ووقعت ضحكة بيث الرنانة كالصقيع على رأس سارة .

تبعت ذلك لحظة صمت . واخذ اللون يتسرب من خدي سارة ، تاركاً اياها تبدو شاحبة وخائفة . ولم تضطر للنظر الى وجه هيو لترى العيوس يتجمع فوق وجهه وذلك عندما لوححت جيل لهم بجرأة ، ثم اختفت هي وكولن في زحمة الموجودين .

تابعت بيث الابتسام ، ممسكة بذراع هيو ، وعيناها تدرسان مظهر سارة المشعث قليلاً بنظرة باردة حقود . وبدا واضحاً انها استخلصت نتائجها الخاصة ولم يعجبها ما رأت .

وادركت سارة ذلك عندما تتممت بيث بسلاسة :

«لقد رأيتك وجيل تدخلان كوخ الفنان البارحة ، يا سارة . ولكنني كنت مستعجلة جداً فلم اتوقف . كنت على وشك سؤال جيل ان تصطحبه معها اليوم ، ولكن يا لحسن الحظ كانت من النباهة بحيث توقعت الدعوة» .

كانت سارة تعرف بأن بعض النساء قادرات على التصرف بذكاء شيطاني عندما يتعرضن للاثارة . وكانت تعرف ايضاً بأن بيث كانت تعلم بوجود كولن وبعض الخلافات والمناقشات بشأنه . ومن المحتمل ان جيل قد سدت الثغرات في معلوماتها ، الى حد الافضاء اليها بدور سارة في الموضوع . وكل ما تحتاجه بيث الآن هو تشويه بعض الحقائق ، مستعملة المعلومات من اجل الوصول الى غرضها .

زحفت البرودة الى جلد سارة ، ومعها شعور بالحتمية . فان الشيء الذي خشيته اكثر من غيره قد حدث اخيراً . ان هيو يعرف الآن دورها في محاولة خذعه . وبدا الاحتقار الذي يشعر به تجاهها واضحاً على وجهه . وتناهى اليها صوته يقول باقتضاب من خلال ضباب العذاب الذي اكتنفها :

«اسمحي لسارة ولي يا بيث بانهاء هذه الرقصة فقط» .

قبل ان تستطيع سارة الاعتراض جرها بعيداً عن عيني بيث المشمئزتين الى حلقة الرقص . ولكنها لم تشعر بالامتنان له في قلبها . فلا شك ان الاستجواب سيبدأ الآن . بدأت التعاسة تتجمع في نفس سارة اذ اخذ خوفها يتفاقم . وتعثرت قدمها على الأرض المصقولة . فشدها هيو بسرعة الى الأعلى ، محيطاً اياها بذراعيه الشديدين وقال بصوت خافت قاس : «حاولي على الأقل الا تفقدي قدميك وقد فقدت كرامتك» .

«من فضلك، يا هيو».

«هست وهي تحاول ان تسيطر على نفسها، ولكنه قاطعها بصوت متحجر:

«لا تقولي انك تملكين تفسيراً، وانك لا تعرفين عما كانت يث تتحدث، لانني لا اريد ان اسمع تفسيراً».

حدقت سارة فيه بعينين وجلتين واسعتين، مائلة رأسها الى الوراء لكي ترى وجهه. لا شيء يمكن ان يكون اسوأ من هذه اللحظة، ان هيو انسان غريب! لا صلة له بالرجل الذي احتواها بين ذراعيه بحب عميق في الحديقة. وشملتها عيناه بنظرات كالسياط، وقد لاح النور في كل خلجة من خلجات وجهه.

«من فضلك يا هيو. يجب ان تصغي الي، من اجل جيل على الأقل. الا نستطيع ان نذهب الى مكان ما لكي نتحدث؟».

رفض هيو توسلاتها على الفور، كما توقعت ان فعل.

«هذا المكان يصلح للكلام كأي مكان اخر. ولو انني وجدت نفسي معك بمفردنا لوقعت في خطر استعمال العنف الجسدي، او اتحت لك الفرصة ثانية لكي تتلاعب بي كما تشائين. وهو شيء يبدو انك قد تمتعت به جداً في الماضي».

من ذا الذي قال بأن الكوايس لا تستمر؟ هذا الكابوس يمكن ان يستمر العمر كله! وحاولت سارة تحت عنف صدمتها ان تنتزع نفسها بعيداً عنه ولكنه امسك بها كالكماشة، واحاطت اصابعه بخصرها الرقيق كالقولاذ. ووجدت انها اذا ما ارادت ان تتجنب اثاره الانتباه، فمن الافضل لها ان تتبعه حيث يريد.

ويدا من غير المنطقي، انه على الرغم من تهكمه، كانت ما تزال تتأكلها الرغبة الملحة في ان تدعه يرى بانها لم تتعمد ان تتخذه. وانها تصرفت كما فعلت مدفوعة بتيقنها من ان كولن براون قد تعرض للظلم في الحكم عليه. ثم انه بوجود اخت كولن في الكوخ معها طوال الوقت بدا من الحكمة اتاحة الفرصة لجليل وكولن لمعرفة حقيقة مشاعرهما دون التعرض للمعارضة وتأثيراتها السلبية.

«عل الأقل، دعني اقول لك بانني شخصياً اعتقد بأن كولن براون هو

شاب جيد يمارس مهنة جيدة. وهو يرغب صادقاً، بالتعرف عليك».

«ما الطف هذا! لا احد يستطيع الادعاء بأنك لم تزنيه وتقييمه جيداً.

ولكن، بحق السماء، وفري على التفصيلات».

«انني اكرهك!».

«الشعور متبادل».

قال منفجراً بلهجة يفعمها عنف مستكن. ومض بريق الخطر في عينيه وهو يستوعب شحوبها الشديد. لم يكن هنالك من غيباً واحست بمصاييح الثريات المظلة من سقف الصالة المزين تلسع وجهها بنورها المتألق، ولاح هيو تجسداً للقتل، القتل المجرد العاري.

«انا اعرف كل شيء عن عزيزنا السيد براون. هذا يعني: استطرد

مصححاً. انني اعرف الآن. وبناء على معلوماتي اجدني اتفق معك في الرأي في انه لا غبار عليه. ولكن ليس هذا هو الموضوع المطروح. وانت تعرفين ذلك. فلقد تعمدت ان تخدعيني، وانا لا اهتم مطلقاً بالاسباب المخفية. لانني طلبت منك ان تفعل شيئاً ووافقت. ولكنك لجأت من وراء ظهري الى العمل ضدي طوال الوقت».

قابلت عينا سارة الكيبرتان المحملقتان عينيه بتوسل بينما راح الالم والاستياء يصطرعان في نفسها.

«انني لا ارى الأمر كما تراه، يا هيو. لقد ظننت بأنني كنت اتصرف من اجل خير الجميع. ثم انني قد وضعت كل مشاعري الخاصة بشأن دوري في الموضوع في المكان الثاني، لأن اهتمامي الرئيسي كان منصّباً على مصلحة جيل».

«ما الطف هذه الخطبة الصغيرة، يا سارة. هل كنت تتوقعين التصفيق والثناء؟ بدلا من ان تكثري من الاحتجاج، لماذا لا تعترفين بأنك كنت قد قررت ان تتصرفي كما تشائين منذ البداية؟ مثل طفل افسده التذليل. حسناً، انني ارى الآن والفضل هو ليث. وانا اعرف تماماً حقيقة معدنك».

«كيف تجرؤ...؟».

واندفعت الدماء الحارة الى خديها. وتحولت الى عاصفة من الغضب. وانتهت الرقصة بمرافقة لحن صاخب من الاوركسترا. فتوقفا يحدقان كل

منها في وجه الآخر، غير عابئين بالناس حولهما. وتصلب ظهر سارة من شدة الغضب الذي خنق دموعها في مهداها. ورمت برأسها الى الوراء متحدية.

«الا تظن، بأنه قد يكون هناك تفسير مختلف؟ لقد اكتشفت بأنك كنت غخطاً فيما يتعلق بكون براون، ولكن لم تفكر بأن تأتي لتصارح من بعينهم الأمر بحقيقة ما اكتشفت. كيف استطاعت مثل هذه المعلومات ان تنزلق من ذاكرتك العجيبة! ولو انك فعلت، لكنت انا وجيل لك من الشاكرين».

ثم استدارت، اذ لم تعد تملك السيطرة على كلماتها، ودون ان تنتظر اي جواب جرت مبتعدة. ولم تكن من المغرقات بالحنان، وقد لاحظت انها وهيو قد اخذا يجذبان انتباه الموجودين. وسارعت سارة لمغادرة قاعة الرقص. وتنفست الصعداء عندما عثرت على ايان في طريقها.

كان يمشي في الردهة، ويذا واضحاً انه كان يبحث عنها. وشعرت بوخزة من الشعور بالذنب عندما اشرق وجهه فرحاً برؤيتها. هل هي في حقيقتها انसानه مخادعة، كما تشعر الآن؟ ربما. ولكنها وجدت من الصعوبة ان تسيطر على العواطف التي كانت تعتمل في نفسها.

«من فضلك يا ايان. عندي صدام عنيف. هل تفضل بايصالي الى البيت؟».

عبس ايان وهو يمدق في وجهها بامعان، بعينين قلقتين، وقد تيقظت حاسته الطيبة.

«لم تعرضني لحادث او لشيء من هذا القبيل يا سارة؟».

«لا في الحقيقة... الا اذا كان باستطاعتي ان اصف نقاشاً حاداً مع رئيسي بالحادث. ان الرقص يوشك على التوقف يا ايان. أمل الا يزعجك ان تغادر الآن».

«طبعاً لا. في الحقيقة كنت على وشك ان اسالك شخصياً بأن تدعينا نذهب الآن. فبعد نصف ساعة سيبدأ صف طويل من السيارات بالتجمع لمسافة ميل تقريباً، مما سيجعلنا غير قادرين على التحرك. اذا استطعت العثور على معطفك فستجدينني في السيارة خارج البوابة».

كانت سارة ما تزال تشعر ببعض الحجل عندما فكرت بايان بعد عدة

ساعات. ولم تدرك الا بعد ان اوصلها وتركها، بأنه لم يقل الا القليل، وكأنه قد خمن الاتجاه الحقيقي لعواطفها. وساق بها الى لوخ غويل بدون ان يبدي ولو ملاحظة واحدة غير لطيفة، على الرغم من انها شعرت بأنه كان يود لو يعرف موضوع الخلاف مع هيو. لا شك انه سيعرف في القريب العاجل... بعد ان تكون قد ذهبت.

كان رأسها ما يزال يؤلمها، على الرغم من الحبوب التي اصر ايان بأن تأخذها. ولكنها حاولت ان تتجاهل صدامها، وقفزت من فراشها. لقد نجحت في الحصول على قسط من النوم على الأقل، مع انه كان نوماً متقطعاً مضطرباً.

كان الذي ايقظ سارة هو صوت السيارة في الساحة امام القلعة. وتذكرت بأن هيو كان قد رتب الخروج لقضاء هذا اليوم مع جون فينلي. بما سيدفعه لمغادرة القلعة باكراً. من الواضح انه لن يدع خلافاً مع سكرتيرته يفسد متعته.

وصلت الى النافذة في اللحظة التي اختفى فيها هيو. ولم تلمح منه الا رأسه الداكن قبل ان يسوق بعيداً. ولما استدارت بسرعة وقعت عينها على فستان حفلة الليلة الماضية ملقى على الأرض. ففي الساعات الأولى من هذا الصباح، عندما نزعت، لم تبال بما يحدث له. فالتجهت بسرعة الى خزانة الثياب، وفتحت بابها. ثم انزلت حقيبتها ووضعت فيها ثيابها.

يجب ان تترك لوخ غويل في الحال. لن يكون بإمكانها ان تبقى وتواجه هيو مرة ثانية، ليس بعدما حدث ليلة البارحة. فلا شك ان احتقاره لها سيكون واضحاً الى الحد الذي يثير الارتباك بينها. هذا فيما عدا مشكلة حبها له الذي لن تستطيع ان تخفيه. ثم ان عملها هنا قد انتهى تقريباً. ولن يجد هيو صعوبة في اتمامه بنفسه. اوربما تتبرع بيث بتقديم كل المساعدة التي تحتاجها.

انتهت سارة من خزم ملابسها وسارعت لوضع خططها. ستكلم بالمهاتف لتطلب سيارة اجرة من سالن. ثم تأخذ المركب من كريغينور. ولم تكن تعرف موعد مغادرته للجزيرة، ولكن سائق سيارة الاجرة سيخبرها لأن سكان الجزيرة يعرفون مثل هذه الأشياء في العادة. ومن اويان ستأخذ القطار الى غلاسكو، ثم الى لندن. واذا حالقها الحظ فستصل الى منزلها في

المساء.

بعد ساعتين كانت تجلس على الرصيف في كريغنبور. كان الوقت الحادية عشرة فقط. وقال لها سائق سيارة الأجرة بأن المركب سيصل قبل الساعة الثانية عشرة، ولهذا لن تنتظر طويلاً.

كان أهل البيت في لوخ غويل ما يزالون في الفراش عندما غادرت. وكانت قد كتبت رسالة صغيرة لميو تركتها له في المكتبة. وقالت لبيدي باقتضاب بأنها قد استدعيت للعودة الى لندن في الحال. ولم تكن واثقة فيما اذا كانت بيدي قد صدقتها ام لا. ولكنها وعدت بأن تخبر الآخرين عندما يهبطون من غرفهم. لا شك في ان هيو سيفكر في عذر مناسب عندما يعود. اما الآن فقد جلست على صندوق مقلوب لتخزين السمك، كما فعلت عندما قدمت قبل عدة اسابيع. ولكن بدلاً من ان تنظر باتجاه البر راحت تنظر نحو البحر، لأنها هذه المرة كانت تنتظر المركب وليس رجلاً ذا لسان حاد وعينين اكثر حدة، رجلاً كتب عليها ان تحبه.

كان الصباح جميلاً، رطباً ومنعشاً، ولا غيوم الا ما تجمع منها فوق الأفق. فاغلقت سارة عينيها بتصميم ضد سحر المنظر. عندما تذهب بعيداً عن الجزيرة ستشعر بالتحسن دون شك. ولكنها الآن يجب ان تحتفظ بذهنها جامداً كأبي الهول. يجب الا تفكر.

وفجأة فتحت عينيها المفروقتين بالدموع، وقبلها يخفق بشدة. وشعرت بالضعف يسري في قدميها. فقد حادت سيارة اللاندروفر عن الطريق الشمالي، وسارعت باتجاه الرصيف ثم توقفت قربها بضغطة شديدة على الفرامل. وقفز منها رجل طويل داكن الشعر...

اه، لا. وقفزت يد سارة الى عنقها. ليس للمرة الثانية، ودون ان تعبر انتباهاً لوهم رجلها، سارعت للوقوف متعثرة فوق قدميها، غير مصدقة ما رآته عيناها.

ولكن هيو لم يتوقف للسؤال هذه المرة. ودون ان يتكلم او ينظر اليها كما يجب، التقط متاعها بقسوته المعهودة، والقى به كيفما كان في مؤخرة السيارة.

«ابن تظنين انك ذاهبة؟»

قال اخيراً، وهو يحيد بالسيارة عن الرصيف.

لاحظت انه كان في منتهى الغضب، ولكن لم يكن هنالك ما تستطيع ان تفعله لأن صوتها بدا وكأن اصابه الشلل. واخيراً استطاعت ان تقول بصوت ضعيف:

«هل وجدت الرسالة التي تركتها لك؟»

«نعم. قال بعنف وهو يغير السرعة قرب المنعطف. لقد استلمتها. ورأيت جيل ايضاً. ولكن هذا ليس هو المهم. ان جيل لا تملك ذرة من التعقل. ولكنني توقعت منك ان تكوني اكثر حكمة».

لم يفت سارة تهكمه الشديد. فاستدارت بسرعة لتنظر من النافذة. والدموع توشك ان تقفز من عينيها.

«لقد ظننت بأنك كنت ذاهباً لقضاء اليوم بطوله بصحبة صديقك».

اطبق هيو فكيه بشدة وقال بايمجاز:

«ولهذا قررت ان تهربي وتذهبي الى جين في لندن».

تبعث ذلك لحظة صمت طويلة. وشعرت سارة بالعرق يكسو كفيها، فكورت اصابعها حولها بشدة. وتابعت اللاندروفر طريقها. وضاق الشارع. وفجأة قاد هيو السيارة الى طريق فرعي وتوقف. فوجدت سارة نفسها في مكان تحيط به اشجار الصنوبر، المكان نفسه الذي توقفا فيه في السابق، في اول يوم لها على الجزيرة.

اوقف هيو المحرك، واستدار اليها على الفور، ولاحظ تعبيرها الوجلي.

«الآن. قال بحدة وبدون شفقة. ستتكلم انا وانت».

«حسناً، افعل ما تشاء اذا كنت تظن بأن هذا سيشكل فرقاً ما».

اجبرت نفسها على القول بلا اكتراث.

وانطلقت يده الى كتفها، وامسك به ضاغطاً، موجعاً اياها عن قصد.

«اصغى الي».

ولمعت عيناها بسخريه. ودفعت نبرة صوته بالدماء الحارة الى وجتيها.

وظل يحدق في عينيها حتى لم تعد تحتل نظراته، فاطبقت جفنيها، وهمست:

«لقد قلت بأنك رأيت جيل».

«نعم. قال باقتضاب. وقد فسرته الكثير، كل ما لجأت اليه كي تهبرك

على الموافقة على خططها من اجل ان تخفي صديقها. لا يسمعي ان اقول

بأنه قد ثار بها الغضب عندما ذكرت لها بأنه لم يكن هناك داع لهذا.
فسارعت سارة الى القول عندما توقفت لحظة متأملاً:
«لقد ذكرت شيئاً عن كولن في الحفلة، شيئاً عن كونه مناسباً».
وضع هيو أصبعه تحت ذقنها، واجبرها على النظر اليه.
«لقد قبض رجال الشرطة على كولن بروان عندما قاموا بمهاجمة ناد كبير
من اجل ضبط المخدرات. لا اظن ان جيل قد فكرت باطلاعك على هذه
الحقيقة!».

ولما هزت سارة رأسها بحفلة، استمر قائلاً:

«لقد اطلق سراحه لحسن الحظ اذ ثبتت براءته. ولكن قبل ان يحدث
هذا استلمت والدة جيل أخباراً سيئة من اميركا. قبل ان تتزوج من والدي
كان قد مضى على ترملةا خمس سنوات. ولو ان المعلومات التي استلمتها
كانت صحيحة، لكان معنى هذا بأن زوجها الأول ما زال على قيد الحياة.
مما يعني بدوره من الناحية الفنية بأن زواجها من والدي لم يكن قانونياً. كل
هذا حدث بعد موت والدي بقليل مما جعل المرأة المسكينة تكاد تفقد
عقلها. ولكن ما لبثت ان تبين بأنه كان هنالك خطأ في الموضوع ناشئ
عن عدم اكتشاف هوية الميت الحقيقية. بالاختصار، كانت قد فقدت
زوجها الأول في حادث طائرة في المكسيك. ووقعت اوراقه بين يدي
شخص اخر. وبعد كل هذه المدة يشاء سوء الحظ ان يلقي هذا الرجل
ايضاً حتفه في حادث فتقع اوراق زوجها في ايدي الشرطة وتكون هي
الاوراق الوحيدة التي امكنهم التعرف من خلالها على هويته. ولهذا اتصلوا
بها في لندن».

حاولت سارة مستاءة ان تجد تعليلاً.

«اما كان بالامكان ان تذهب جيل معها... أو أنت؟».

«لقد رفضت ان تصغي لمثل هذا الاقتراح. ان اختها في بليمبور معها
الآن بالطبع ولكنها لم تشأ ان تعرف جيل شيئاً عن الموضوع، خصوصاً
الآن، بعد ان زالت الحاجة».

«ولهذا فقد طلبت منك ان تعتني بجيل وتراقبها اثناء غيابها. وما كدت
اصل الى هنا حتى امرتني بالتعاون معك».
بدا فمه الساخر حنوناً:

«تذكرني يا سارة بانني لم اكن معتاداً على الأمور والمشاكل العائلية.
لعلني قد تصرفت بمبالغة، باذلاً الجهد لبناء خط دفاعي ثقيل ضد عيني
زرقاوين جميلتين».
حاولت سارة ان تحتفظ بشيء من حضور الذهن من اجل ان تتجاهل
ضربات قلبها.
«مسء البارحة، ذكرت بأن كولن شخص لا بأس به. ولكنك لم تشر الى
هذه الحقيقة من قبل».

كشر هيو لاوياً وجهه وقال:

«وانني لم اعتقد بأن هذا كان ضرورياً. لقد ظننت ان جيل نسيته. او
لعلك تستطيعين ان تعللي السبب بحالتي النفسية».
«ولكن متى اكتشفت الحقيقة؟».

ألحت سارة.

«عندما ذهبت الى لندن، وقابلت جيمس كار. كان قد تعهد بأن يبحث
لي عن الحقيقة. وقد قابلت ايضاً جين مارلي، وتكلمنا معاً».

أضاف وقد رقت عيناه.

عبث النسيم المتسرب من نافذة السيارة بشعر سارة. ولكنها رفضت بأن
تدفع ذهنها يشرود.

«ليلة البارحة كنت غاضباً جداً».

«طبعاً يا حبيبي. وجاء صوته مرحاً مفعماً بالسخرية. يجب ان تتذكرني
بانني لم اكن اعرف أن السيد براون كان على ظهر الجزيرة. ناهيك عن كونه
يقطن هنا في كوخ استأجره. وعندما تبرعت بيت بالهمس بالمعلومات في
اذني احمرت الدنيا في عيني. ولم يكن وجود كولن هنا هو الذي هزني، بل
علمك بوجوده».

حدقت سارة فيه بعينين واسعتين تحف بهما الظلال. ثم تحركت شفتاها
الرقيقتان وقالت بنادم:

«أسفة، يا هيو. ارجو ان تصدقني».

«يا حبيبي. قال ضاماً اياها بشدة. انا هو الذي يجب ان يعتذر، لا
انت. كل ما استطيع ان اقوله هو ان الحب يجعل الانسان حساساً واعماً.
لقد اردت ليلة البارحة ان اتوسل اليك لكي تتزوجيني. والله وحده يعلم

بأنني لم ادع شيئاً يقف في طريقي من قبل . ولم يحل بيني وبين سؤالك الا مزيج غريب من الاسباب المتصلة بين وايان ماكنزي . لقد اردت ان يكون المكان مناسباً والجو مناسباً لأنني لم اسأل فتاة من قبلك ان تتزوجني . وانا في العادة لا ادع مجالاً لحقد بيث وحبها للانتقام ان يؤثرا علي .
«انت لا تحبها اذن؟»

انحنى هيو وقال :

«ليس هنالك شيء البتة بين بيث وبيتي ، يا حبيبي . كل ما في الامر انها تظن انها تميل الي اكثر من غيري من الرجال» .
ابتسمت سارة بعذوبة ، ولكنها لم تناقش . اذ ان بيث اسكويث لم تعد مهمة على الاطلاق .
وضمها اليه مرة ثانية .

«احبك» . قال بصوت سريع خافت . وكان نواح الريح هو الصوت الوحيد للمحظة ، حتى رفع رأسه وتمعن في وجهها المحمر الرقيق . احبك يا حبيبي . ردّد بانفعال . ولكن هل انت على استعداد للزواج مني والعيش هنا في لوخ غويل؟ انني انوي ان ادير املاكي هنا بنفسي . وراقب اعماله في لندن من لوخ غويل» .

رفعت سارة الى هيو عينين تتألق فيهما النجوم ، وحدقت فيه وفمها يرتعش تحت وطأة العواطف العارمة التي جاشت فيها .

«سأرعاك يا سارة . قال واعداً . سأحاول ان اعوضك عن كل شيء» .
تناهى الى سارة تغريد طائر ، وكان الهواء عابقاً بروائح الصيف في الجزيرة . وسمعت في صوت هيو حناناً لم تستطع ان تنكره .

«يا حبيبي . ردت بصوت يكاد لا يكون مسموعاً . انني احبك الى الدرجة التي لا يمحى فيها اين اعيش . ولكن لوخ غويل مكان مثالي ، لوخ غويل وانا وانت» .

لقد جاءت الى هذه الجزيرة قبل مدة قصيرة بقلب مجروح حزين . اما الآن فقد راح قلبها يخفق متناغماً مع خفقات قلب الرجل الذي كان يضمها بحنان . ولم يعد قلبها يرجع الا اصوات البحر ، وفاضت به الموسيقى .